المكتبة الثقافية

٥٤

قصة التفسير

احمد الشرباصي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

أول فبراير ١٩٦٢

المكتبة الثقافية
٥٤

قصة التفسير

أحمد الشرباصي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

أول فبراير ١٩٦٢

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الإسلام دين الله الحنيف ، الذى آمنت به من قبل مئات الملايين من البشر، خلال عصور التاريخ الإسلامى المتعاقبة ، منذ بعث الله إلى الخلق نبيه المرتضى ورسوله المصطفى محمدا صلوات الله وسلامه عليه ، وتؤمن به الآن مئات الملايين من البشر ، تحيا فى شرق الأرض وغربها ، وتؤمن بان دين ربها فيه أسباب السعادة لدنياها وأخراها ، مصداقا لقول الله عز وجل : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

ولقد جاء هذا الدين من لدن الله إلى عباده ، وله أساس

وعماد ودستور ، هو القرآن الكريم الذى يقول فيه أحكم الحاكمين وأصدق القائلين : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » .

وهذا القرآن الكريم الذى يضم هدى الله وشرعه وحكمه ، قد جاء مبينا معجزا موجزا يعرض لنا المبادئ الكلية والقواعد العامة والأصول الشاملة ، وكلف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس ما وراء هذه المبادئ والقواعد والأصول من تفاصيل وأجزاء وفروع : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » ؛ كما طالب الله جل وعلا عباده بأن يتعظوا بهذا القرآن ويعتبروا بآياته ، بعد أن يتدبروها ويتفكروا فيها : « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها » ؟ . « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » .

ولاشك أن مفتاح الفهم للإسلام أوباب الفقه لدعوته ورسالته وشريعته ، إنما يكون عن طريق التفسير السليم القويم لهذا

الكتاب الإلهي المجيد ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ولتفسير القرآن الكريم قصة يجب أن تروى ، لأنها قصة الإسلام كله . وهذه القصة يجب أن تسمعها الآذان الواعية ، وتتدبرها العقول السامية ، وتعمر بها القلوب الصافية ، لأنها قصة الكتاب المنقذ المنجد المسعد ، الواعد الصالحين بالخير والفلاح ، فى الدنيا والآخرة : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر باسا شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا » .

وفى الصفحات التالية عرض متواضع لقصة التفسير منذ بدأت إلى الآن فى إيجاز وتقريب ، فإذا استطاعت هذه القصة أن تستلفت أبصارا أو بصائر ، رجا صاحبها أن يجعل الله ذلك العمل سببا من أسباب العفو والمغفرة ، فى الدنيا والآخرة ، إنه أفضل مامول وأكرم مسئول ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا إلى سواء السبيل .

أحمد الشرباصى

كلمة التفسير

الفسر[1] فى اللغة البيان ، والتفسير مثله ، والفسر : كشف المغطّى ، وكل شىء يُعرف به تفسير الشىء ومعناه فهو تفسرته ، واستفسرته كذا : سألته أن يفسره لى ، وتفسير القرآن الكريم هو بيان كلام الله عز وجل ، بذكر مفهومات الكلمات والعبارات الموجودة فى القرآن .

ولكلمة « التفسير » فى اصطلاح العلماء معنيان : أولهما ما تقدم ، والثانى قسم من اقسام علم « البديع » الراجع إلى المحسنات المعنوية ، وهو أن يأتى المتكلم بمعنى لا يستقل الفهم بإدراك فحواه ما لم يفسره كلام آخر بعده ، كما فى قول الشاعر :

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم
في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ، ومصابح
تجلو الدجى ، والأخريات نجوم

وقال بعضهم : التفسير فى الاصطلاح هو علم نزول الآيات

(١) بفتح الفاء وسكون السين .

وشئونها وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيِّها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفصّلها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها .

ومن الواضح أن كلمة « تفسير » تدل بصفة خاصة في الإسلام على تفاسير القرآن ، وعلى علم التفسير نفسه الذى يعرف باسم « علم القرآن والتفسير » .

وقد يطلق على التفسير كلمة « التاويل » ، والتاويل لفظ ماخوذ من مادة « الأَوْل[1] » وهو الرجوع ، فكان المفسر صرف الآية وعاد بها إلى ماتحتمله من المعانى ، وقيل إنه ماخوذ من « الإيالة » وهى السياسة ، فكأن المؤوِّل للكلام ساس الكلام ، ووضع المعنى فيه موضعه .

* * *

ولما استعملت كلمة « التأويل » مع كلمة « التفسير » اختلف العلماء فى العلاقة بينهما : أهما متحدتان أم مختلفتان ، فقالت طائفة

---

(١) بفتح الهمزة وسكون الواو .

هما بمعنى واحد ، وقال الراغب الأصفهانى : التفسير أعم من التاويل ، وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التاويل فى المعانى والجمل .

وقال غيره : التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحداً ، والتاويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة ، إلى واحد منها عما ظهر من الأدلة . وذكر ابن منظور فى « اللسان » أن التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر .

وقال الماتريدى: التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله تعالى أنه عنى باللفظ هذا ، والتأويل ترجيح احد المحتملات بدون القطع والشهادة .

وقال أبو طالب التغلبي : التفسير بيان وضع اللفظ ، إماحقيقة أو مجازاً ، والتاويل تفسير باطن اللفظ ... فالتاويل إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد ، مثاله قوله سبحانه وتعالى : « إن ربك لبالمرصاد » ، تفسيره : إنه من الرَّصَد ... وتأويله : التحذير من التهاون بامر الله .

وقيل إن التفسير يتعلق بالرواية ، وأما التاويل فيتعلق بالدراية ، ولذلك قال أبو نصر القشيرى : التفسير مقصور على السماع

والاتباع ، والاستنباط فيما يتعلق بالتأويل . وقال قوم : ما وقع بيننا فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يسمى تفسيراً ، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ، بل يحمل على المعنى الذى ورد فلا يتعداه ، والتأويل ما استنبطه العلماء العالمون بمعنى الخطاب ، الماهرون فى آلات العلوم .

ولعل أحسن مايقال هنا ما نقل عن الراغب الأصفهانى وهو ان التفسير اعم من التاويل ، واكثر مايستعمل التفسير فى الألفاظ والتاويل فى المعانى كتاويل الرؤيا ، والتاويل يستعمل اكثره فى الكتب الإلهية ، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها ، والتفسير اكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ ، والتاويل أكثره يستعمل فى الجمل . ومهما يكن من شيء فقد اصاب ابن فارس فى كتابه « الصاحبي » حين قال : « معانى العبارات التى يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى والتفسير والتاويل ، وهى وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة » .

وقد يطلق على التفسير كلمة « الحكمة » ،فقد نقلوا فى تفسير قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » أن ابن عباس قال : الحكمة : المعرفة بالقرآن ؛ ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه ،

ومقدّمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله . وفى رواية عن ابن عباس فى معنى الحكمة : « يعنى تفسيره ، فإنه قد قرأه البر والفاجر » .

ويطلق اسم « أصحاب المعانى » على مصنفى الكتب فى معانى القرآن كالزجاج والفراء وابن الأنبارى ، ولعل ذلك لأنهم كانوا يسمون تفسيرهم « معانى القرآن » ، وللزجّاج كتاب اسمه « معانى القرآن » لم يصنّف مثله كما يقول الزرقانى .

مكانة التفسير

مكانة التفسير بمكانة موضوعه ، وموضوعه هو أشرف الموضوعات ، لأنه كتاب الله عز وجل ، وكتاب الله هو الضياء والغذاء والدواء والشفاء، وهو مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة . وحسبنا أن نورد هنا عبارة ذكرها شيخ المفسرين الطبرى فى مقدمة تفسيره ، وفيها يقول :

« أما بعد . فإن من جسيم ماخص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية ، حفظه ما حفظ ــ جل ذكره ، وتقدست أسماؤه ــ عليهم من وحيه وتنزيله . الذى جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة ، وعلى ما خصهم به من الكرامة علامة واضحة ، وحجة بالغة ، أبانه به من كل كاذب ومفتر ، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد ، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك ، الذى لو اجتمع جميع مَنْ بين أقطارها ، من جنها وإنسها ، وصغيرها وكبيرها ، على أن يأتوا بسورة من مثله ، لم يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فجعله لهم فى دجى

الظُّلَم نوراً ساطعا ، وفى سـدف[1] الشبه شهابا لامعاً ، وفى مضلة المسالك دليلا هادياً ، وإلى سبل النجاة والحق حاديا .

يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، حرسه بعين منه لا تنام ، وحاطه بركن منه لا يضام ، لا تهى على الأيام دعائمه ، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجور عن قصد المحجة[2] تابعه ، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه ، من اتبعه فاز وهدى ، ومن حاد عنه ضلّ وغوى .

فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون ، ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعتقلون[3] ، وحصنهم الذى به من وساوس الشيطان يتحصنون ، وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون ، وفصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون ، وعن الرضا به يصدرون ، وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون » .

وإذا كان الإمام الطبرى قد صرف همته فى عبارته السابقة إلى تبيان منزلة القرآن ، والحديث عن مكانته ، فإن الإمام

(١) السدف : جمع سدفة ، وهى اختلاط الظلام .

(٢) المحجة : الطريق .

(٣) يعتقلون : يلجأون ويتحصنون .

الزركشي في مقدمة كتاب « البرهان » يتحدث في عبارة له عن مكانة القرآن ومكانة تفسيره معاً ، فيقول :

« أما بعد فإن أولى ما أعملت فيه القرائح، وعلقت به الأفكار اللواقح[1]، الفحص عن اسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التاويل ، الذي تقوم به المعالم ، وتثبت الدعائم ، فهو العصمة الواقية ، والنعمة الباقية ، والحجة البالغة ، والدلالة الدامغة ، وهو شفاء الصدور ، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور ، وهو الكلام الجزل ، وهو الفصل الذي ليس بالهزل ، سراج لا يخبو ضياؤه ، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه ، وبحر لا يُدرك غوره ، بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه ، قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه ، وقسّم لفظه ومعناه ، إلى ما ينشط السامع ، ويقرّط المسامع[2] ، من تجنيس انيس ، وتطبيق لبيق[3] ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل ،

(١) اللواقح : الخصيبة .

(٢) يقرط المسامع : يضيء لها كالأقراط .

(٣) لبيق : لطيف ظريف .

وتبليغ بليغ ، وتصدير بالحسن جدير ، وترديد ماله مزيد ، إلى غير ذلك مما احتوى من الصياغة البديعة والصناعة الرفيعة ، فالآذان باقراطه حالية ، و لأذهان من اعماطه غير خالية ، فهو من تناسب الفاظه ، وتناسق أغراضه ، قلادة ذات اتساق ، ومن تبسم زهره وتنسّم نشره حديقة مبهجة للنفوس والأسماع والأحداق ، كل كلمة منه لها من نفسها طرب ، ومن ذاتها عجب ، ومن طلعتها غرة ، ومن بهجتها درة ، لاحت عليها بهجة القدرة .

وتزل ممن له الأمر ، فله على كل كلام سلطان وإمرة ، بهر تمكنُ فواصله ، وحسن ارتباط أواخره وأوائله ، وبديع إشاراته ، وعجيب انتقالاته ، من قصص باهرة ، إلى مواعظ زاجرة ، وأمثال سائرة ، وحكم زاهرة ، وادلة على التوحيد ظاهرة ، وأمثال بالتنزيه والتحميد سائرة ، ومواقع تعجب واعتبار ، ومواطن تنزيه واستغفار .

إن كان سياق الكلام ترجية بسط ، وإن كان تخويفا قبض ، وإن كان وعداً أبهج ، وإن كان وعيدا أزعج ، وإن كان دعوة حدب ، وإن كان زجرة أرعب ، وإن كان موعظة أقلق ، وإن كان ترغيبا شوّق :

هذا ، وكم فيه من مزايا وفى زواياه من خبايا

ويطمع الحبر فى التقاصى فيكشف الحبر عن قضايا
فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب ، وصرفه بابدع معنى وأغرب أسلوب ، لا يستقصى معانيه فهمُ الخلق ، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطَّلْق ، فالسعيد من صرف همته إليه ، ووقف فكره وعزمه عليه ، والموفّق من وفقه الله لتدبره ، واصطفاه للتذكير به وتذكُّره » .

ويقول الراغب الأصفهانى إن « أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله » وذلك لأن الصناعة إنما تشرف بشرف موضوعاتها ، أو بشرف صورها ، أو بشرف أغراضها ، وصناعة التفسير قد تحقق لها الشرف فى الموضوع ، لأن موضوعها كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ؛ وتحقق لها شرف الصورة لأن صورته إظهار المكنون والقرآن من أسرار أودعها الله فيه ؛ وتحقق لها شرف الغرض ، لأن مقصدها التمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا فناء لها .

وجاء فى كتاب « الإتقان » للسيوطى العبارة التالية :
« فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث : أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع

كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه .
واما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا تفنى ، وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال دينى أودنيوى ، عاجل أو آجل، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهى متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى » .

* * *

ونستطيع بعد مطالعة هذه النصوص وأمثالها أن نتبين مكانة التفسير الجليلة ، وان نعرف مبلغ حاجتنا إليه . وفوق حاجتنا إلى التفسير نجد أننا مامورون شرعا بتطلبه والوقوف عليه ، ولذلك يقول الحسن البصرى : « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها ، وما استثنى من ذلك ، لا متشابها ولا غيره » .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على تفهم كتاب الله تعالى ، وتطلّب تفسيره . ولذلك يقول ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

ولا شك أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد هذا الكتاب الإلهى المجيد ، ومن هنا قال سعيد بن جبير : « من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابى » . يقصد البدوى الجاهل الذى لم يتعلم .

ولذلك جاء فى تفسير الطبرى : « وفى حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما فى آى القرآن من المواعظ والتبيان ، بقوله جل ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) وقوله : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بامثال آى القرآن ، والاتعاظ بمواعظه ، ما يدل على أن عليهم معرفة تاويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات ، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ، ولا معرفة من القيل والبيان ، إلا على معنى الأمر بان يفهمه ويفقهه ، ثم يتدبره ويعتبر به » .

ويقول ابن كثير فى مقدمة تفسيره :

« فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله ،

وتفسير ذلك وطلبه ، وتعلم ذلك وتعليمه . كما قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون) وقال تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) . فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها ، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به ، وأن نأتمر بما امرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهيمه » .

وإذا رجعنا إلى جار الله الزمخشرى فى تفسيره «الكشاف» وجدناه فى المقدمة يتحدث بما نفهم منه أن الخوض فى تفسير القرآن واجب « كفرض العين » ! .

وحينما يتحدث القرطبي فى تفسيره « الجامع » عن قارىء القرآن الكريم يذكر أنه ينبغى له ان يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه ، فينتفع بما يقرأ ، ويعمل

بما يتلو ، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب ، وهو لا يفهم ما يتلو ، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه ؟ وما اقبح أن يُسال عن فقه ما يتلوه فلا يدريه ، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً !! .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على الدعوة إلى العناية بتفسير القرآن ، كقوله تعالى فى سورة النساء : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . وقوله فيها : « أفلا يتدبرون القرآن » . وقوله فى سورة محمد : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . وقوله فى سورة «المؤمنون» : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين » . وقوله فى سورة ص : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

وفى الحديث النبوي الشريف ما يدل أيضاً على الدعوة إلى تطلب التفسير والعناية بأمره ، وذلك مثل قول الرسول ﷺ : « القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه » أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس .

وقوله : « ذلول » معناه أنه سهل تنطلق به الألسنة فى يسر

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » ، أو أنه واضح المعانى ، لا يستغلق على طلاب فهمه . وقوله : « ذو وجوه » معناه انه يحتمل وجوها من التفسير ، أو أنه فيه وجوه من الأوامر والنواهى ، والتحليل والتحريم ، والتبشير والإنذار . وقوله : « فاحملوه على احسن وجوهه » يراد به حمله على احسن المعانى المحتملة ، أو على أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص ؛ وفى هذا دلالة على أن التفسير مطلوب .

وما أجمل قول الرسول فى التحريض على قراءة القرآن وتفهم معانيه : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم وأبو داود .

وما دام التفسير شريف المكانة بهذه الصورة التى رأيناها كان لابد أن ينال هذا الشرف أيضاً الذين يشتغلون به ويعكفون عليه ويخلصون فيه ، ولذلك يقول مجاهد : « احب الخلق إلى الله تعالى اعلمهم بما نزل » . ولا شك أن هؤلاء هم الذين يقرنون العلم بالعمل ، ولذلك قال أبو عبد الرحمن السلمى : « حدثنا الذين كانوا يقراون القرآن كعثمان بن عفان

وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة » ا .

ويقول إياس بن معاوية : « مثل الذين يقراون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا ، وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعة ، ولا يدرون ما فى الكتاب ، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب » .

شروط المفسر

المفسر يتعرض لأشق مهمة علمية ، وهى تفسير كتاب الله عز وجل ، وهو حين يتعرض لذلك لا يفسر كلاما لفرد من الناس ؛ ولا يحكم على مخلوق مثله ، وإنما هو يفسر كلام الله الخالق سبحانه وتعالى ، وهذه مهمة من أشق المهمات وأكثرها خطراً .

وفى فاتحة تفسير « الكشاف » يتحدث الزمخشرى عن صعوبة علم التفسير ، وتفاوت العلماء فى إدراك أسراره ، والتقاط درره ، وتتبع نكته ، ويشير إلى الشروط التى يجب توافرها وتحققها فيمن يقدم على التفسير ، فيقول :

« اعلم ان متن كل علم ، وعمود كل صناعة ، طبقات العلماء فيه متدانية ، وأقدام الصناع فيه متقاربة او متساوية ، إن سبق العالمُ العالمَ لم يسبقه إلا بخطا يسيرة ، او تقدم الصانعُ الصانعَ لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة ؛ وإنما الذى تباينت فيه الرتب ، وتحاكّت فيه الركب ، ووقع فيه الاستباق والتناضل ، وعظم فيه التفاوت والتفاضل ، حتى انتهى الأمر إلى أمد

من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عُدّ ألف بواحد ، مافى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقَر ، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر ، ومن غوامض اسرار ، محتجبة وراء أستار ، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطتهم وخصهم ، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها باحداقهم ، عناة (١) فى يد التقليد ، لايمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم .

ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح (٢) ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات اسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذى لايتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى كتاب (نظم القرآن) ، فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى

---

(١) عناة : جمع عان ، وهو الأسير .
(٢) القوارح : التى اكتملت .

وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك [١] اللغات بقوة لحييه ، لايتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما ازمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد ان يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورُجع إليه ، ورَد ورُد عليه ، فارسا فى علم الإعراب ، مقدما فى جملة الكتاب .

وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دراكا للمحة وإن لطف شانها ، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها ، لا كزّا جاسيا [٢] ولاغليظا جافيا ، متصرفا ذا دراية باساليب النظم والنثر ، مرتاضاً غير ريّض [٣] بتلقيح نبات الفكر ، قد علم كيف يرتّب الكلام

(١) علك : مضغ .
(٢) كزاجاسيا : شحيحاً قليل المواتاة غليظ الطبع .
(٣) مرتاضاً غير ريض : أى مجربا غير جديد على التجربة .

ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع فى مداحضه (١) ومزالقه » .

وقد تحدث السابقون من العلماء — ومنهم السيوطى فى الإتقان— عن العلوم التى يحتاج إليها الإنسان ليكون قادراً على التفسير ، وهى : .

الأول : اللغة ، ليعرف بها شرح المفردات ومدلولاتها بحسب الوضع ، ولا يكفى فى حقه معرفة اليسير من اللغة ، فقد يكون اللفظ مشتركا ، وهو يعلم أحد المعنيين ولا يعلم الآخر بينما هو المراد ، وقد قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب » .

الثانى : النحو ، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من معرفة وجوه الإعراب ، لتحديد المعنى المراد من التركيب بناء على معرفة إعرابه ، وقد سئل الحسن عن الرجل يتعلم العربية ، يلتمس بها حسن المنطق ، ويقيم بها قراءته ، فقال للسائل: « حسن ، فتعلمها ، فإن الرجل يقرأ الآية

---

(١) المداحض : أماكن الزلل . والمراد أن يكون للشخص سابق علم بهذه المزالق فلا يقع فيها لعلمه بها .

فيمي بوجهها ، فيهلك فيها » . والمراد بالعربية هنا الإعراب وهو النحو .

الثالث : التصريف ، إذ به يعرف المفسر أبنية الكلمات وموازينها وصيغتها ، فإذا وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها ، فاستطاع معرفة مادتها ومعناها ، ومن جهل علم التصريف تعرض لأخطاء مضحكة فى التفسير .

الرابع : الاشتقاق ، وهو معرفة المصدر الذى صدرت عنه الكلمة ، فالاسم إذا كان من مادتين مختلفتين اختلف معناه باختلافهما ، كالمسيح مثلا : اهو من السياحة ، أم من المسح ؟ . . .

الخامس : علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، فمن طريق المعانى يعرف المفسر خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ، وبالبيان يعرف خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة على المعنى المراد اوخفائها ، وبالبديع يعرف وجوه تحسين الكلام. يقول السيوطى: « وهذه العلوم الثلاثة هى علوم البلاغة ، وهى من أعظم اركان المفسر ، لأنه لابد له من مراعاة مايقتضيه الإعجاز ، وإنما يُدْرَك بهذه العلوم » .

السادس : علم القراءات ، لأن هـذا العلم هو الذى يجعل الإنسان يعرف كيف ينطق بالقرآن ، وبهذه القراءات يترجح بعض الوجوه التفسيرية المحتملة على البعض الآخر .

السابع : أصول الدين ، أى قواعده المتعلقة بصفات الله وبالإيمان ؛ لأن الأصولى — أى العالم باصول الدين — يستطيع أن يستدل من القرآن على ما يستحيل ، وما يجب ، وما يجوز .

الثامن : أصول الفقه ، لأن المفسر يستطيع بمعرفته أن يدرك وجه الاستدلال على الأحكام .

التاسع : أسباب النزول ، لأن معرفة سبب النزول للآية توضح المراد منها .

العاشر : الناسخ والمنسوخ ، ليعلم المفسر به الآيات المحكمة والآيات المنسوخة إذا وجدت .

الحادى عشر : الحديث ، لأن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يبين للمفسر المجمل والمبهم .

والقرآن يذكر الأحكام الشرعية غالبا بصورة كلية ، وهذا يحتاج إلى بيان وتفسير ، والسنة تتكفل بهذا ، والقرآن على إيجازه جامع ، ولا يكون جامعا إلا والمجموع فيه أمور كليات ، فالصلاة والزكاة والحج لم تذكر أحكامها التفصيلية فى القرآن ،

وتكفلت السنة بذلك ، وكذلك تفصيل الزواج والعقود والقصاص والحدود ؛ والله تعالى يقول : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ويقول: « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والرسول يقول فى الحديث الصحيح : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لاندرى ، ماوجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

فلا بد عند تفسير القرآن من الرجوع إلى السنة إن وجد منها شىء يفسر النص القرآنى ، وإلا نظرنا فى تفسير السلف الصالح ، وإلا اتبعنا مطلق الفهم العربى الصحيح .

الثانى عشر : ما عبر عنه السيوطى بقوله : « علم الموهبة » وهو — كما يقول — علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة بحديث : « من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم » . وقدسبقت للزمخشرى عبارة جاء فى ذيلها مايؤكد هذا ..

وكان السيوطى قد خشى أن يعترض معترض ، أو يتوقف متوقف أمام ما سماه « علم الموهبة » ، ولذلك قال : « ولعلك تستشكل علم الموهبة ، وتقول : هذا شىء ليس فى قدرة الإنسان . وليس كما ظننت من الإشكال ، والطريق فى تحصيله ارتكاب

الأسباب الموجبة له من العمل والزهد . قال في البرهان : « اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ، ولا يظهر له اسراره ، وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا ، أو وهو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالإيمان ، أو ضعيف التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله ؛ وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض » .

قلت : وفي هذا المعنى قوله تعالى : « ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » قال سفيان بن عيينة : « يقول : أنزع عنهم فهم القرآن » ! .

* * *

ولكي يستقيم المفسر في تفسيره ، ويوفقه ربه لقول الحق والنطق بالصدق والاهتداء إلى أسرار التاويل ، لابد له من آداب يتحلى بها ، فتكون تزيينا وتجميلا وروحا للشروط التي اشترطها العلماء في المفسر ، وأجملناها فيا سبق ، وقد تحدث الإمام أبو وائل الطبري في أوائل تفسيره عن آداب المفسر ، فذكر من ذلك أنه يجب أن يتوافر في المفسر صحة الاعتقاد ، ولزوم سنة الدين ، فإن كان متهما في دينه لا يؤتمن على الدنيا ،

فكيف يؤتمن على الدين ، بل كيف يؤتمن على أساس الدين ومنبعه ، وهو الإخبار عن الله عز وجل .

ويجب فيه كذلك ان يكون اعتماده فى التفسير على النقل عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ومن عاصرهم ، كلما أمكن ذلك وصح النص والنقل ، وأن يتجنب البدع والمحدثات ، وإذا تعارضت أقوال المنقول عنهم ، وأمكن للمفسر ان يجمع بينها فعل ، وان لا يكون قصده من وراء التفسير هوى من أهوائه ، أو غرضاً من أغراض دنياه ، وإلا أثر فيه ذلك فانحرف أو اعتسف . يقول الطبرى فى ذلك :

« ومن شروطه[1] صحة المقصد فيما يقول ، ليلقى التسديد ، فقد قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وإنما يخلص له القصد إذا زهد فى الدنيا ، لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل به إلى غرض يصده عن صواب قصده ، ويفسد عليه صحة عمله » ا .

---

(١) أى من شروط المفسر للقرآن الكريم .

التخوف من التفسير

علمنا مما سبق ان التفسير مهمة خطيرة جليلة ، لأنها تتعلق بكلام الله رب العالمين، ولأن فيها إخباراً عن المولى جل جلاله وعز سلطانه ، فلو كان الإخبار عن أحد من البشر لهان الأمر ؛ ولذلك كان كثير من السلف يخافون من التعرض للتفسير ، فسروق مثلا يقول : « اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله » . وكان سعيد بن المسيب إذا سئل عن تفسير آية قال : إنا لا نقول فى القرآن شيئا . ويقول الشعبي : « والله مامن آية إلا قد سالت عنها ، ولكنها الرواية عن الله عز وجل » . ويذكر (جولد تسيهر) فى كتابه « مذاهب التفسير الإسلامى » أنه حتى عهد متقدم من القرن الثانى للهجرة نجد شواهد على أن الاشتغال بالتفسير كان منظورا إليه بعين التهيب والرهبة .

فالقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، امتنعا عن تفسير القرآن كما يذكر ابن سعد ، وأبو وائل شقيق ابن سلمة ، الذى عاصر زياداً والحجاج ، كان إذا سئل عن شيء

من القرآن قال : « قد أصاب الله الذى به أراد » . أى أنه لا يريد أن يشغل نفسه بالبحث عما وراء ذلك من معنى .

ولما سئل عبيدة بن قيس الكوفى عن شىء من أسباب النزول اجاب : « عليكم باتقاء الله والسداد ، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن » . ولما سئل سعيد بن جبير أن يفسر قال للسائل : « لأن تقع جوانبي خير لك من ذلك » .

وممن هابوا التفسير وخافوا التعرض له جندب بن عبدالله ، ونافع ، وعروة ، وعبيدة السلمانى ، وكذلك ابتعد الأصمعى عن تفسير القرآن بسبب التقوى والورع .

ولكن يظهر لنا أن هذا التهيب إنما كان فيما لا علم لهم به ، ولا نقل لديهم فيه ، ولا رواية عندهم بشانه ، ولذلك نرى الإمام ابن كثير فى أول تفسيره يسوق طائفة من الروايات عمن خافوا التفسير ثم يقول :

« فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه ، فاما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب

علي كل احد ، وإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى : (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) ، ولما جاء فى الحديث الذى رُوى من طرق : (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) .

ثم يذكر ابن كثير الحديث المروى عن عائشة : « ما كان النبي ﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد ، علمهن إياه جبريل عليه السلام » ويبين ما جاء فى الحديث من توهين وتضعيف ، ويعقب على ذلك بانه لو صح الحديث فإن من القرآن ما استاثر الله تعالي بعلمه . . . وقد جاء عن ابن عباس ان من القرآن ما هو « متشابه لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب» . ويورد ابن جرير الطبرى بعض الأخبار التى رويت بالنهى عن القول فى تاويل القرآن بالراى ، مثل الحديث الذى يقول : « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » وفى رواية : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . ومثل قول أبى بكر : « أي ارض تقلنى ، واي سماء تظلنى ، إذا قلت فى القرآن برايى ، أو بما لا اعلم» ؟ .

ثم يقول الطبرى : « وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا ، من ان ما كان من تاويل آي القرآن الذى لا يدرك

علمه ، إلا بنص بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بنص الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل [1] فيه برايه ، بل القائل فى ذلك برايه ، وإن أصاب الحق فيه ، فمخطئ فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن انه محق ، وإنما هو إصابة خارص [2] وظان ، والقائل فى دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم ، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده ، فقال :

(قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) . فالقائل فى تاويل كتاب الله الذى لا يُدرَك علمه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعل الله إليه بيانه ، قائل عما لا يعلم ، وإن وافق قيله ذلك فى تاويله ما أراد الله به من معناه ، لأن القائل فيه بغير علم ، قائل على الله ما لا علم له به .

وهذا هو معنى الخبر الذى حدثنا به العباس بن عبد العظيم العنبرى ، قال : حدثنا حبان بن هلال قال : حدثنا سهيل

(١) القيل : القول .   (٢) خارص : قائل بغير علم .

ابن ابى حزم قال : حدثنا ابو عمران الجونى عن جندب : أن رسول الله ﷺ قال : « من قال فى القرآن برأيه فاصاب فقد أخطا » .

يعنى ﷺ أنه أخطا فى فعله ، بقيله فيه برأيه ، وإن وافق قيله ذلك عين الصواب عند الله ، لأن قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم أن الذى قال فيه من قول حقٌ وصواب ، فهو قائل على الله ما لا يعلم ، آثم بفعله ما قد نهى عنه وحُظر عليه » .

* * *

وقد يخطر بالبال هنا سؤال هو : أفي القرآن ما لا يمكن تفسيره ؟ . . .

وقد ذكر الراغب الأصفهانى أن عامة المتكلمين ذهبوا إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوما ، أى مفهوم المعنى ، أى مستطاع التفسير ، وإلا أدي عكس ذلك إلى بطلان فائدة الانتفاع به ، وان لا معنى لإنزاله ، وحملوا قوله تعالى فى سورة آل عمران : « والراسخون فى العلم » على أنه عطف علي قوله تعالى : « لايعلم تأويله إلا الله » وجعلوا قوله تعالي : « يقولون آمنا به » فى موضع الحال ، فيكون معنى الآية أنه لا يعلم تأويل القرآن إلا الله وإلا الراسخون فى العلم ، وحالهم أنهم يقولون

آمنا به وبانه من عند الله . ويفيد هذا ان القرآن كله ممكن التفسير لهؤلاء العلماء .

وأما عامة أعيان الصحابة وكثير من المفسرين بعدهم فقد ذهبوا إلى انه يصح أن يكون في القرآن بعض ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وقال ابن عباس : « أنزل القرآن علي أربعة أوجه : وجه حلال وحرام لايسع أحدا جهالته ، ووجه يعرفه العرب ، ووجه تأويله يعلمه العالمون ، ووجه لا يعلم تأويله إلا الله ، ومن انتحل فيه علما فقد كذب » .

ويمكن التوفيق بين الرأيين بان نقول: لعل الذين قالوا إن فى القرآن ما لا يمكن للإنسان تاويله أرادوا أنه لا يمكن للإنسان ان يجزم بحقيقة المراد منه لله تعالى ، لأن ذلك عند الله ؛ وهذا لا يمنع أن يفهم الإنسان معنى لهذا النص قدر طاقته ، وفوق كل ذي علم عليم .

أو لعلهم أرادوا بما لا يمكن للإنسان أن يعلمه الأشياءَ التى استاثر الله بعلمها ، كقيام الساعة ، وعلم الغيب ، وحقيقة ما فى الأرحام ، وما إلى ذلك . ولاشك أن القرآن الكريم — كما يقول الطبرى — ذكر أشياء من قبيل « ما لا يعلم تاويله إلا الله الواحد القهار ، وذلك مافيه من الخبر عن آجال حادثة ، وأوقات

آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، ونزول عيسى ابن مريم ، وماأشبه ذلك ، فإن تلك أوقات لايعلم أحد حدودها ولايعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها ، لاستئثار الله[1] بعلم ذلك على خلقه ، وكذلك انزل ربنا فى محكم كتابه ، فقال : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تاتيكم إلا بغتة ، يسالونك كأنك حفى عنها ، قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

ولعل هذا هو المراد لمن قال إنه لاشك أن من آيات القرآن ما لم يطلع الله علي علمه ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ولكنهم يؤمنون بأنه من عند الله ، وأنه لايعلم تاويله إلا الله جل وعلاه

واما ما عدا ذلك من النص القرآنى الذى يتعلق بعقيدة أو معاملة أوتشريع أواجتماع أوأخلاق فلابد للناس من معرفته ، ومن الوقوف على تفسيره وتاويله ، إما عن طريق البيان النبوى ، أوعن طريق اقوال الصحابة ، واجتهاد الأئمة السلف ، أو عن طريق التدبر والاستنباط ، ولم يترك النبي ﷺ امته حتى فهمت من كتاب الله عز وجل ما تحتاج إلى فهمه وبيانه

(١) لاستئثار الله : أي لانفراده بعلم ذلك .

من أصول الدين وقواعده وتشريعاته . . . يقول الطبرى :

« فأما مالابد للعباد من علم تاويله فقد بين لهم نبيهم ﷺ ، ببيان الله ذلك له ، بوحيه مع جبريل ، وذلك هو المعنى الذى أمره الله ببيانه لهم ، فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

والله لم يقبض نبيه إليه إلا بعد إكمال الدين به لعباده ، وعلمه بان لله فى كل نازلة وحادثة ، حكما موجودا بنص او دلالة .

اختلاف المدارك في التفسير

وحسبنا ان نتذكر هنا أن القرآن العربى البليغ الوجيز المعجز المشتمل على الدقائق واللطائف والأسرار لا يمكن أن يكون الناس فى فهمه والتاثر بمعناه والتصور لمفاهيمه على مرتبة سواء ، بل القرآن الكريم أشبه بالكنز الذى لا تنتهي فوائده ، ولا تحصى فرائده — ولله المثل الأعلى — وهو مفتّح الأبواب لكل قاصد أو راغب ، وكل داخل إلي هذا الكنز ياخذ منه ما يستطيع أو ما يطيق ، فمنهم من يخطو خطوة ، ومنهم من يخطو خطوات ، ومنهم من يقطع مراحل ، والسبيل ممتدة ممتدة ، والكنز مليء مليء ، وصدق العلى الكبير : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » . والراغب الأصفهاني يقول : « ما من برهان ولا دلالة وتقسيم وتحديد مبنى على كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين » .

والناس فيهم العام والخاص ، والأمى والمتعلم ، والبليغ وغير البليغ . وخطوات هؤلاء ليست متساوية ؛ ولعل ذلك هو الذي جعل ابن قتيبة يذكر في رسالته « المسائل والأجوبة » أن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ؛ كما ينص الأصفهاني على أن أحوال أهل العربية نفسها مختلفة فى معرفة معانى القرآن ، وإذا كان القرآن قد وُصف بانه « بيان» و « مبين » . فإن هذا الوصف أمر نسبي — كما تقول بلغة العصر — فبيان القرآن للرجل البليغ الفطن غير بيانه للأمي والعامى ، وكل منهما يأخذ ما يكفيه ويشفيه من البيان .

والأصفهانى يقول هنا فى « مقدمة التفسير » ما نصه : « ولو كان البيان لا يكون بيانا حتى يعرفه العامة ، لأدى ذلك إلى ان يكون البيان في كلام السوقى العامى ، أو إلى أن لا يكون بياناً بوجه ، إذ كل كلام بالإضافة إلى قوم بيان ، وبالإضافة إلي آخرين ليس ببيان ، وقد عُلم أن قوله تعالى : (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) وقوله : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) من اشرف كلام ، ولا حظ فى معرفته لمن لم يتوافر نصيبه من البلاغة » .

ويعود فيقول : « ثم إن القرآن — وإن كان فى الحقيقة

هداية للبرية — فإنهم لن يتساووا في معرفته ، وإنما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم ، فالبلغاء تعرف من فصاحته ، والفقهاء من أحكامه ، والمتكلمون من براهينه العقلية ، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه ، وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه ؛ وعلى ذلك اخبار النبي ﷺ ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها كما سمعها ، حتى يؤديها إلي من لم يسمعها ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع ».

وفي موضع آخر من « مقدمة التفسير » يشير الأصفهاني إلى تفاوت العلماء في تفهم القرآن ، وأن أعظم ما يقصر فهم الكثيرين عن إدراكه على وجهه شيئان : أولهما راجع إلى اللفظ ، والآخر راجع إلي المعنى ، والراجع إلى اللفظ شيئان ، أولهما ما اختصت به اللغة العربية من الإيجاز ، والحذف والاستعارات الخفية ، والإشارات اللطيفة ، واللمحات الغامضة ، مما لا يوجد في غير هذه اللغة ، والآخر ما يوجد في القرآن بوجه خاص من الإيجازات والحذف ، مما ليس في غيره من الكلام ، ولما فيه من اللفظ اليسير المتضمن للمعنى الكثير .

وأما الراجع إلى المعنى فهو أن الله تبارك وتعالى ذكر

إصولا منطوية على فروع ، بعضها تولى بيانه النبي ﷺ ، وبعضها ترك استنباطه للراسخين فى العلم ، تشريفاً لهم وتعظيما لمحلهم ، لكى تقرب منزلة علماء هذه الأمة من منزلة الأنبياء فى استنباطهم بعض الأحكام ا.

* * *

وعند التأمل نجد أن فى التفسير مرتبة دنيا ومرتبة عليا ؛ أما المرتبة الدنيا فهى التى تليق بالعامة ، وهى فهم ما يعطيه الظاهر من الآيات ، وإدراك المعنى الإجمالى العام ، مما يحقق الطاعة ، ويبعد عن المعصية . وأما المرتبة العليا للتفسير فهى مرتبة الخاصة من العلماء والباحثين ، الذين يبحثون فى دقائق التفسير وخفاياه وأسراره ، مما لا يسهل على العامة تناوله وهضمه ، ولعل هذا هو المقصود من قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب » .

واللافت للنظر هنا هو أن القرآن الكريم صالح بتعبيره وتصويره لأن يفهم منه العامى ما يقنعه ، وأن يأخذ منه المتخصص ما يشبعه ، ولذلك صح للراغب أن يقول : « فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة تشتمل على أدق دقيق ، لتفهم العامة من جليها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، ويفهم

الخواص من اتباعها ما يوفى على ما أدركه فهم الحكماء ، وعلى هذا قال عليه الصلاة والسلام : « إن لكل آية ظهراً وبطناً ، ولكل حرف حداً ومطلعا » ، لا على ما ذهب إليه الباطنية .

ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيب من علم القرآن أكثر ، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها إلى أولى العقل ، ومرة إلى أولى العلم ، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المفكرين ، ومرة إلى المتذكرين ، تنبيها على أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها » ! .

* * *

وأول مراتب التفسير أن يفهم الإنسان معاني الألفاظ ، ومن الألفاظ ما يعرفه العامة والخاصة ، ومنها ما يعرفه معظم الخاصة ، ومنها ما يعرفه القليل من الخاصة ؛ ومن ضروب الألفاظ ما يحتمل أكثر من معنى ، ولذلك يتفاوت الناس فى مجال التفسير تفاوتاً كبيراً .

وقد يسأل هنا سائل فيقول : فما أحسن طرق التفسير ؟ .
وقد أجاب ابن كثير عن ذلك السؤال بأن أصح الطرق هى أن نفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى مكان قد بسط فى موضع

آخر ، فإن أعيانا ذلك فعلينا بالسنة ، لأنها شارحة القرآن والموضحة له ، وإذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، رجعنا إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولمالهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لاسيما علماءهم وكبراءهم ؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ...

وبعد الخلفاء تأتى قائمة الأئمة من المفسرين كعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، ثم مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وعطاء ، والحسن ، ومسروق ، وسعيد بن المسيب ، وأبى العالية والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم من التابعين وتابعى التابعين .

وعند الاختلاف بين هؤلاء نرجع إلى لغة القرآن أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة ، وقد قرر العلماء أن القرآن العربي المبين يلزم أن تكون معانيه جارية على أصول المعانى العربية فى اللغة العربية ، ولذلك يقول ابن جرير الطبرى فى مطلع تفسيره : « فالواجب أن تكون معانى كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ لمعانى كلام العرب موافقة ، وظاهره لظاهر

كلامها ملائماً ، وإن بأينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان » .

ويصعب بطبيعة الحال ان نحكم على تفسير بعينه بانه أحسن التفاسير ، لأن ما يتوافر في تفسير قد لا يتوافر فى تفسير آخر ، ولا يتيسر لتفسير شخص أن يجمع كل المعانى أو الأسرار، وإن كان السيوطى فى « الإتقان » ينقل عن النووى أن كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله . وأن العلماء المعتبرين أجمعوا على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله ، ثم يقول السيوطى : « وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة ، والأقوال المقولة ، والاستنباطات والإشارات ، والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع،وغيرذلك ، بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلا وسميته : بمجمع البحرين ومطلع البدرين » .

والقضية برغم هذا فى حاجة إلى نظر .

* * *

ومما يتصل بتفسير القرآن الكريم « تفسير الغريب » أى الكلمات الغريبة فيه التى تحتاج إلى تفسير و بيان، وقد ألف فيه أبو عبيدة وابو عمر الزاهد وابن دريد والزجاج والفراء والأخفش

وابن الأنبارى ، ومن أشهر المؤلفين فيه العزيزي والراغب الأصفهانى وابن قتيبة .

ومعرفة هذا الفن ضرورية للمفسر ، ومن حسن الحظ أنه نُقل إلينا عن الصدر الأول تفسير لما فى القرآن المجيد من غريب فقد قال السيوطى فى هذا المجال: « وأولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنه ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة » .

* * *

وقد ذهب البعض إلى أن القرآن له ظاهر وباطن ، ويقصدون بالظاهر المفهوم العربى المستطاع ، وبالباطن مراد الله تعالى من كلامه ، مثل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » فمفهومها أن الله أكمل لعباده الدين ، ولكن أبا بكر بكى حين سماعها وقال : « ما بعد الكمال إلا النقصان » ففهم منها نعى النبي ﷺ ، ولم يعش النبي بعدها إلا واحداً وثمانين يوما .

وذهب الشاطبي إلى أن كل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبغي فهم القرآن إلا عليها ، كالمسائل البيانية والمنازع البلاغية فهو داخل تحت الظاهر ، وكل ما كان من المعانى التي تقتضى تحقيق المخاطب بوصف العبودية ، والإقرار لله بالربوبية ، فذلك

هو الباطن المراد ، والمقصود الذى أنزل الله القرآن من أجله .

وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من علوم القرآن فى شئ ، لأن القرآن عربى ، نفهمه كما نفهم كلام العرب ، فهو : « بلسان عربي مبين » ، وإذا لم نقرر هذا و نؤكده جاء الخلل فى التفسير ، فيزعم من يسمى « بيان ابن سمعان » أنه مسمى فى القرآن فى قوله تعالى : « هذا بيان للناس » ، ومن تسمى « بالكسف » ، ثم زعم أنه مذكور فى القرآن فى قوله تعالى : « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا » ، وكما حدث من عبيد الله المهدى الشيعى حين اتخذ صاحبين أحدهما اسمه « نصر الله » ، والآخر اسمه « الفتح » ، وكان يقول إنهما المذكوران فى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح »١.
ويقرر الشاطبي أنه يشترط فى تحديد الباطن — وهو المراد من الخطاب — أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، وأن يكون له شاهد يشهد بصحته من غير معارض ، لأنه بدون هذا يكون دعوى بلا دليل ، وإذا توافر الشرطان كان هذا الباطن غير خبط الباطنية الذين يقولون ما لا يقوم عليه دليل ولا يستقيم به بيان عربي ، كقولهم : « اغتسلوا » :

جددوا العهد ، وإن التيمم هو الأخذ من « المأذون » إلى أن يشاهد « الداعى » أو « الإمام » ، وأن الصيام الإمساك عن كشف السر ، وأن الطهور هو البراءة من غير متابعة « الإمام » ، وأن « الصفا » هو النبي ، و « المروة » هو على ، إلى آخر ما هناك من خرافات واضحوكات ! ! . .

* * *

ويجب أن نلاحظ أن هناك طائفة من الألفاظ نقلها القرآن من معناها اللغوى ، إلى معان شرعية لها صلة بالمعنى اللغوى ، وذلك مثل كلمات : الإيمان ، والإسلام ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والفسوق ، والكفر ، والتيمم . وبعض العلماء يرى أن هذه الألفاظ وأمثالها باقية في كلام القرآن على معناها اللغوى ، ولكن القرآن زاد فيها ، وبعضهم يرى أنه استعملها مقيدة لا مطلقة .

وهذا الأمر يتعلق بموضوع « الحقيقة والمجاز » ، والحقيقة هى اللفظ المستعمل فى المعنى الذي وضع له فى أصل اللغة ، من غير نقل ولا زيادة ولا نقصان ، والمجاز هو الكلمة المستعملة فى غير ماوضعت له فى اللغة لعلاقة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

وكل من الحقيقة والمجاز قد يكون فى مفردات الألفاظ ، وقد يكون فى الجمل ، وربما يكون اللفظ الواحد من جهة حقيقة ، ومن جهة مجازا ، كقولهم : « فلان عظيم الأقدام » ، فن حيث استعمل كلمة « القدم » فهو حقيقة ، ومن حيث إنه جمع فقال «أقدام» فهو مجاز ، لأن الإنسان ليس له إلا قدمان! . . .

ولم يتكلم أحد من الصحابة ، ولا من التابعين ، ولا من الأئمة المشهورين فى العلم ، كمالك والثورى والأوزاعى والشافعى ، عن الحقيقة أو المجاز فى القرآن ، لأن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى .

وأول من تكلم عن المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه « مجاز القرآن » ، والإمام ابن حنبل قد أورد فى كتابه « الرد على الجهمية » عبارات تفيد أن فى القرآن مجازا .

وهناك من أنكر وجود المجاز فى القرآن ، مثل أبى الحسن الجزرى ، وأبى الفضل التميمى ، ومحمد بن جرير مندار ، ومنذر بن سعيد البلوطى ، بل ذهب الإسفراينى إلى أن المجاز غير موجود فى اللغة ! . .

ومن الواضح أن اللفظ قد يستعمل فيما وضع له كاستعمال لفظ « الأسد » فى الحيوان المفترس ، وقد يستعمل لفظ الأسد

فى غير مارضع له كالرجل الشجاع ، وهذا معناه وجود المجاز بوضوح ، ولاشك أن القرآن يتضمن ألفاظاً فيها مجاز . . .

* * *

ويتصل بهذا موضوع « التفسير بالتخييل والتمثيل » ، فمثلا قول الله تعالى : « مالكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » ؟ .

وقوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا » .

فالسلفيون يقولون إن الميثاق قد أخذ فعلا ، فالله سبحانه وتعالى أخرج بعد خلق الإنسان كل الأجيال المستقبلة من ظهر آدم ، وأخذ عليهم ميثاقا بالاعتراف بالله ؛ ولكن المعتزلة لايقبلون هذا التفسير ، ويقولون إن الكلام من باب التمثيل والتخييل ، وإن الله نصب الأدلة للناس تدل على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بذلك عقولهم وبصائرهم ، فكان هذا أخذا للشهادة ، ويقولون إن هذا هو مايوافق العقل .

يقول جولد تسيهر في هذا الموطن من كتابه « مذاهب التفسير الإسلامى » :

« وأشرف انتفاع يستفيده المعتزلة من اشتراطهم ـ فيما يتصل

بتفسير الكتاب ـ مطابقة العقل فى الحقائق الدينية هو محاربتهم للتصورات الخرافية المناقضة للطبيعة التي رسخت قدمها فى الدين».

ولكن الإسراف فى القول بالرأى والاعتماد علي العقل — كما يفعل المعتزلة — جعل ابن القيم يقول عن تفسير المعتزلة للقرآن إنه « زبالة الأذهان ، ونخالة الأفكار ، وعفارة الآراء ، ووساوس الصدور ، فملؤا به الأوراق سواداً ، والقلوب شكوكا ، والعالم فساداً ، وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي علي الوحى ، والهوى علي العقل » ! .

* * *

وهناك نوع من التفسير له قيمته ، وهو تعيين المبهمات الواردة في القرآن ، مما يتعلق بالأشخاص أو الأماكن ، مثل قوله تعالى : « على رجل من القريتين عظيم » ، « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله » ، « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » ، « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى » .

وقد ألف عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى الأندلسى كتابه : « التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام » ، وكذلك ألف السيوطى كتابه : « الأقران فى مبهمات القرآن » .

ولكن يجب علينا أن نحترس احتراسا شديدا فى هذا المقام. لأن تعيين هذه المبهمات إنما يكون بالنص المنقول الذى صحت نسبته وصحت روايته ، وما سوى ذلك يكون رجما بالغيب ، أو قولا على الله بغير علم ، أو تحديداً لما لم يحدده الله ، دون أن يكون مع المحدد دليل أو برهان .

وابن كثير يشير فى تفسيره إلى أن أغلب مواطن التحديد للمبهمات فى القرآن قد جاء عن طريق الإسرائيليات ، ويوصى بالحذر والاحتراس فى هذا الباب ، فيورد عبارة مبسوطة يقول فيها :

« ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام : أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه . والثالث ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ويجوز حكايته لما تقدم . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيرا ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ،

وعددهم ، وعصا موسى من أى الشجر كانت ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضُرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دينهم ولا دنياهم .

ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربي أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا) .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ما ينبغي فى مثل هذا ، فإن الله تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال فى مثل هذا : « قل ربى أعلم بعدتهم » ، فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ، ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال : « فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا » ، أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم ، فأما من حكى خلافا فى مسألة ، ولم يستوعب اقوال الناس فيها ، فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً .

فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب ، او جاهلا فقد أخطا ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبى زور ، والله الموفق للصواب » .

التفسير وقصص القرآن

وقد لا يكون حديثنا ابتعاداً عن الموضوع إذا عرضنا هنا لناحية القصص في القرآن الكريم ، فهذه القصص — كما يقول الشاطبي — لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ، وإنما هي عبرة للناس ، كما قال تعالى فى سورة هود ، بعد ما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » . ولذلك لا تُذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا يراد فيها الاستقصاء .

وأفضل الفوائد وأهم العبر فى هذه القصص هو التنبيه على سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى ، وتاثير أعمال الخير والشر فى الحياة الإنسانية . ويقول الشاطبي: « وليس المراد بنفى كون قصص القرآن تاريخاً أن التاريخ شيء باطل ضار ينزه القرآن عنه ، كلا ، إن قصصه شذور من التاريخ ، تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ » .

ويجب أن نلاحظ أن هناك فرقاً كبيراً بين قصص القرآن والقصص التي يوردها المفسرون، فقصص القرآن حق لا شك فيه، وأما ما أورده المفسرون ففيه الحق والباطل، وقد توسع بعض المفسرين في إيراد ما يصح وما لا يصح من القصص، ويقول ابن خلدون عن المفسرين الناقلين للقصص والآثار:

«وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعبوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود، والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسالون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى».

ويذكر أنهم كانوا لا يحتاطون في مثل هذه الأخبار، ويذكر من الذين ذكروا هذه الأخبار كعب الأحبار، ووهب ابن منبه، وعبد الله بن سلام، كما يذكر أن التفاسير امتلأت من هذه المنقولات، وأن المفسرين تساهلوا فيها، وأن أبا محمد ابن عطية لخص هذه التفاسير: وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة

منها ، واشتهر تفسيره بين أهل المغرب ، وتبعه القرطبي فى تلك الطريقة ، واشتهر كتابه بالمشرق ، وهو يقصد كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي ، وهو مطبوع ومشهور .

وإنما كان المفسرون لا يرون كبير بأس فى التوسع فى ذكر هذه القصص ، لأنها لا تتعلق بعقائد أو أحكام ، ولكنها من قبيل الاعتبار والعظة ، وغرس فضائل الأعمال ، ويروى أن الإمام احمد بن حنبل قال : « إذا روينا فى الأحكام شددنا ، وإذا روينا فى الفضائل تساهلنا ، فبالأحرى القصص » .

وممن توسع فى إيراد القصص فى التفسير أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبي النيسابوري صاحب « التفسير الكبير » ، وكان كثير الحديث ، كثير الشيوخ ، توفى سنة سبع وعشرين واربعمائة وقال عنه ابن خلكان : « كان أوحد زمانه فى التفسير » .

ويروى الحافظ الذهبي فى « تذكرة الحفاظ » أن عبدالله ابن عمرو « أصاب جملة من كتب اهل الكتاب ، وادمن النظر فيها ، ورأى فيها عجائب » ، كما وردت عنه أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة كما روى السيوطي .

وبعض الباحثين يقف فى وجه القصص وقوفاً شاملا مطلقا ، ويتعلل فى ذلك بأن ابن حنبل قد قال : « ثلاثة أشياء لا أصل

لها : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » . ولكن يظهر أن الإمام ابن حنبل يتحدث هنا عن التفسير الموصول الأسباب بالأساطير وقصص الحروب التي يتوسع فيها رواتها ، مما يحتاج إلى الغربلة والتصحيح ، والتأكد من سلامة الرواية ، ولعل الإمام ابن حنبل قد قال هـذا لأنه شاهد أن كثيرا من القصص والأخبار المتعلقة بالملاحم والمعارك ونحوها قد أضيفت إلى التفسير ، فأخرجته عن دقته وتقيده بالرواية الصحيحة والبيان السليم المعقول .

ونقول هذا لأننا نستبعد أن ينفي ابن حنبل التفسير وقصصه نفيا عاما شاملا ، إذ وردت تفسيرات قرآنية للرسول ﷺ ولصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

تبيين الله لكتابه

التفسير قصة يتسلسل فيها المفسرون ، ويمكن إجمال هذه القصة فى أنها تبدأ بتفسير الله جل جلاله ، ثم تنتقل إلى الرسول ، فالصحابة ، فالتابعين ، فتابع التابعين ، ثم تنتقل إلى مدرسة السلف ، ثم إلى مدرسة الخلف ، ثم تنتقل إلى تفسير المتأخرين ، ثم إلى تفسير المجددين المعاصرين .

والله عز شأنه هو أول مبين لكتابه ، لأنه الأعلم بكلامه ومراده ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وما يعلم تأويله إلا الله» وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد ، علمه إياهن جبريل » وجبريل هو سفير الرحمن ، فلا شك في أنه نقل هذا التفسير عن رب العزة سبحانه ، وفى القرآن الكريم آيات نفهم منها هذا المعنى ، وهو أن الله جل جلاله هو المبين الأول للقرآن ، ومنها في سورة البقرة قوله تعالى : « كذلك يبين الله آياته للناس ، لعلهم يتقون» وقوله : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » وقوله : « ويبين آياته للناس ، لعلهم يتذكرون » .

وفى سورة المائدة قوله : « كذلك يبين الله لكم آياته ، لعلكم تشكرون » وفى سورة الفرقان قوله : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » . وفى سورة القيامة قوله : « ثم إن علينا بيانه » .

وإذا راجعنا الآيات التى جاءت فيها كلمة « يسألونك » ، أو كلمة « يستفتونك » ،ووقفنا على تفسيرها وسبب نزولها فهمنا منها ان الله سبحانه وتعالى تولى بيان الأمور وتفسير الأحكام . وفى تحريم الخمر مثلا نجد فى السيرة أن عمر بن الخطاب كان يدعو فيقول : « اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا »، حتي نزل قوله تعالى فى سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ،ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » . فقال عمر : انتهينا ربنا انتهينا ! .

ومن تفسير الله تعالى لكتابه أنه قد يذكر أمرا مطلقاً في آية ، ثم يقيده في آية أخرى ، وقد يذكر أمراً عاماً فى موضع ، ثم يخصصه فى موضع آخر .

تفسير الرسول

وبعد تفسير الله تبارك وتعالى يأتى تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الرسول هو المتلقى للوحى ، المبلّغ عن الله سبحانه ، ولذلك يقول القرآن المجيد : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » ويقول : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه » .

ومن البديهى أن يسال الصحابة النبي عن معانى آيات القرآن، وأن يجيب الرسول عن ذلك ،وهو لم يفسر هذا من عنده ، بل بوحى من الله ، وكان يسال جبريل عن تفسيرها ، وجبريل لايفسرها من عنده ، بل يتلقى تفسيرها عن الله ، ولذلك قلنا إن المبين الأول للقرآن هو صاحب القرآن، وهو الله تبارك وتعالى.

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبين المجمل فى القرآن ، ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرّفه أصحابه ، فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه ، كما علم من قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح » أنها نعى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمثال ذلك ،

ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وتداوله التابعون من بعدهم ، ونقل عنهم ، ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الأول والسلف ، حتى صارت المعارف علوما ، ودونت الكتب ، فكتب الكثير من ذلك ، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين ، وانتهى ذلك إلى الطبرى والواقدى والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين ، فكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوه من الآثار .

وقد ذكر السيوطى أنه جمع كتابا مسندا فيه تفاسير النبي ﷺ ، وسماه « ترجمان القرآن » ، وأنه استطاع أن يجمع فيه أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي والصحابة ، وصنع من هذا الكتاب مختصراً هو كتابه المطبوع « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ، ويقول : « ورأيت وأنا فى أثناء تصنيفه النبي ﷺ فى المنام فى قصة طويلة تحتوى على بشارة حسنة » .

وفى كتاب « الإتقان » ساق السيوطى مجموعة من آثار التفسير المروية عن النبي ﷺ .

ويقول : « وقال قوم : ما وقع مبينا فى كتاب الله ومعيَّنا فى صحيح السنة سمى تفسيراً ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره ، بل يحمله على المعنى

الذى ورد لا يتعداه ، والتأويل ما استنبطه العلماء العالمون لمعانى الخطاب ، الماهرون فى آلات العلوم » .

* * *

ويظهر أن التفسير على عهد الرسول - وفى صدر الإسلام أيضاً - كان قليلا وجيزا ، لأن الملكة العربية الصافية كانت مقتدرة على تفهم أساليب الكلام فى القرآن ، ولكن هذه الملكة فسدت فيما بعد باختلاط العرب بغيرهم ، بعد أن انبسطت ساحة المجتمع الإسلامي وترامت ، ولذلك سارع القوم إلى وضع العلوم اللسانية كاللغة والنحو والبلاغة ، وسارعوا أيضاً إلى وضع التفاسير لتكون نبراساً للناس ، يتفهمون عن طريقها ما فى كلام الله عز وجل من أسرار وإعجاز .

ولا شك فى أنه يجب علينا أن نأخذ التفسير أولا من المنقول عن النبي ﷺ ، بعد تبين صحة النسبة إلى النبي ، لأن هناك أحاديث موضوعة أو غير صحيحة ، ثم نأخذ التفسير بعد النبي من أقوال الصحابة ، لأن أقوالهم بمنزلة المرفوع إلى النبي . وقد روى الحاكم فى المستدرك أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع ، لأن الصحابة لا يقولون من عند أنفسهم ، وخصوصاً إذا كان التفسير لا مدخل للرأى فيه ، وحتى لو كان

للرأى فيه مدخل ، لأن الصحابة هم الذين صاحبوا النبي ، وسمعوا منه ، ونقلوا عنه أمور الشريعة وأسرارها .

ثم نأخذ بعد هذا بالمدلول اللغوى للفظ ، لأن القرآن الكريم جاء بلسان عربى مبين ، ولذلك قال الإمام مالك : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا » أى عاقبته وعذبته .

ثم نأخذ بالمفهوم والتأويل والاجتهاد فى الرأى ، لأن الرسول قال عن ابن عباس : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . ويشترط أن يكون للرأى هنا أصل معتمد من قواعد الشرع وأمور الدين ، وإلا كان ضلالا ، والنبي ﷺ يقول : « من تكلم فى القرآن برأيه فاصاب فقد أخطأ » أى اخطا من ناحية الجرأة والتهجم ، ويقول : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . فلابد أن يكون للرأى دليل وبرهان ، ومستند يستند إليه .

تفسير الصحابة

ويأتي تفسير الصحابة بعد تفسير الرسول ، ويعد عبد الله بن عباس رضى الله عنهما المتوفى سنة ثمان وستين للهجرة أول مفسر للقرآن بعد النبي ، ويقال له « بحر العلم » و « حبر الأمة » و « ترجمان القرآن » ، وروى كما سبق أن النبي ﷺ دعا له ربه بان يعلمه التاويل ، وهو فهم معانى القرآن الحكيم ، وقال فيه مجاهد : « كان إذا فسر آية من القرآن رأيت على وجهه النور » . ويعبر عنه البعض بانه « الحجة الكبرى فى مسائل التفسير » . وقال ابن مسعود : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » (١) .

وكان ابن عباس يستعين فى تفسيره القرآن بشواهد

(١) يقول النووى تعليقاً على هذا القول : « وعاش ابن عباس بعد ابن مسعود نحو خمس وثلاثين سنة ، تشد إليه الرحال ، ويقصد من جميع الأقطار ، ومشهور فى الصحيحين تعظيم عمر بن الخطاب لابن عباس ، واعتداده به ، وتقديمه مع حداثة سنه ، وعاش بعده ابن عباس نحو سبع وأربعين سنة ، يقصد ويستفتى ويعتمد » تهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٧٤ .

من الشعر العربي ، وبسؤال من أسلم من أهل الكتاب ، مثل كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، ويقول ابن عباس : « إذا تعاجم [1] شيء من القرآن فانظروا في الشعر ، فإن الشعر عربي » ، وكان يقرر أن القرآن اشتمل على بعض الكلمات المعربة .

ويعد ابن عباس صاحب اول مدرسة في التفسير استعانت باللغة والشعر واتسع نطاقها فيما بعد ، فإن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن مسائل ، فجاء في جوابه الاستشهاد على تفسير نحو مائتي كلمة بشواهد من الشعر القديم . ومعنى هذا أن ابن عباس شجع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن ، وذلك حين استعان بالشعر وكلام العرب في تفهم أسلوب القرآن وتعبيره ، وإن كان هناك علماء يكرهون الشعر وينفرون منه . كما كان ابن عباس يعرف الكثير عن المغازي وأيام العرب ، ولا تفهم من هذا أن ابن عباس كان يعتمد على العقل والرأي في التفسير ، بل كان مع هذا أو قبله يكثر من الرواية والنقل ، لأنه أحد الستة من الصحابة الذين هم أكثر رواية عن رسول الله ﷺ ، وهم ابو هريرة ، ثم ابن عمر ، ثم جابر ، وانس ، وابن عباس ، وعائشة ، رضي الله عنهم . والإمام أحمد بن حنبل قال : ستة من أصحاب

(١) تعاجم : أي خفي معناه ، بأن كان غريباً يحتاج إلى تطلب معناه.

رسول الله ﷺ أكثروا الرواية به وعمروا ، فذكرهم .
وقال على بن المديني : لم يكن فى أصحاب رسول الله ﷺ أحد له أصحاب يقومون بقوله فى الفقه إلا ثلاثة : ابن مسعود ، وزيد ابن ثابت ، وابن عباس .

وقد روى لابن عباس عن النبي ألف حديث وستمائة حديث وستون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم منها على خمسة وتسعين ، وانفرد البخارى بمائة وعشرين منها ، ومسلم بتسعة وأربعين .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : « ما رأيت أحدا أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ ، وبقضاء ابى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، ولا أفقه منه ، ولا أعلم بتفسير القرآن بالعربية والشعر والحساب والفرائض ، وكان يجلس يوما للفقه ، ويوما للتأويل ، ويوما للمغازى، ويوما للشعر، ويوما لأيام العرب ، وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له ، ولا سائلا سأله إلا وجد عنده علما » .

وذكر النووى أنه ثبت فى صحيح البخارى ان النبي ﷺ ضم ابن عباس إلى صدره وقال : « اللهم علمه الكتاب » ، وفى رواية للبخارى : « علمه الحكمة » ، وفى رواية لمسلم :

« اللهم فقهه » . ولما مات ابن عباس صلى عليه محمد بن الحنفية وقال : « اليوم مات ربانى هذه الأمة » ! .

ولقد طبع لابن عباس تفسير يوجد أصله المخطوط فى المكتبة الحميدية باستانبول ، واسم هذا التفسير « تنوير المقياس بتفسير ابن عباس » ، ويظهر أن هذا العنوان ليس من وضع ابن عباس ، وقد طُبع هذا التفسير على هامش كتاب « الدر المنثور » للسيوطى بالقاهرة سنة ١٣١٤ هـ .

وقد روى على بن أبى طلحة الهاشمى مجموعة من التفسير عن ابن عباس ، ويقول عنه أحمد بن حنبل :

« إن فى مصر تفسيراً عن ابن عباس ، رواه على بن أبى طلحة وليس بكثير أن يُرحل إلى مصر من أجله » . ورووا فى سبب وجود هذا التفسير بمصر أن ابن صالح أحد كتاب الليث بن سعد الفقيه المصرى كتب نسخة من هذه المجموعة لنفسه ، ويذكر بعض الباحثين أن ابن أبى طلحة لم يسمع هذه المجموعة سماعا مباشرا من ابن عباس ، كما أن الشافعى يقول : « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث» .

ويذهب الأستاذ أمين الخولى إلى أن التفسير المنسوب لابن عباس ، والمطبوع بعنوان «تنوير المقياس من تفسير ابن عباس»،

ليس لابن عباس ، ولكنه لمجد الدين الفيروزابادى صاحب « القاموس المحيط » .

* * *

وبجوار ابن عباس يوجد مفسرون آخرون من الصحابة ، فهناك على ابن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت وغيرهم ، ففى صحيح البخارى عن مسروق أن عبدالله بن عمرو ذكر عبد الله بن مسعود فقال : « لا أزال أحبه ، سمعت النبى ﷺ يقول : خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبى بن كعب » .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : « والله الذى لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية فى كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » .

وقد حاول ابن عطية المفسر أن يضع ترتيبا للصحابة فى التفسير فقال إن صدر المفسرين والمؤيد فيهم هو على بن أبى طالب الذى يقول : « لو أردت ان أملى وقر[1] بعير على الفاتحة[2] لفعلت » ، ويتلوه عند ابن عطية عبد الله بن عباس ، لأنه تجرد

(١) الوقر : الحمل الثقيل .   (٢) يقصد سورة الفاتحة .

للأمر وكمله ، ولم يسم أحد من الصحابة بحراً إلا ابن عباس ، لاختصاصه دونهم بالتفسير وعلم التأويل ، وقال فيه على : « كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق » . وقال فيه ابن مسعود : « نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس » . وقد عاش ابن عباس بعد وفاة ابن مسعود خمساً وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه ابن عباس من العلوم والفهوم بعد أن قال ابن مسعود فيه ما قال !! ...

وقال آخرون إنه إذا ورد التفسير عن الصحابى قبلناه ، سواء أكان يفسره بالنقل عن الرسول ، أم يفسره من ناحية اللغة ، وإذا جاء أكثر من رأى للصحابة فى الآية حاولنا التوفيق بينها ، فإن امكن فبها ونعمت ، وإلا قدمنا قول ابن عباس ، لأن الرسول دعا له بأن يعلمه الله الفرائض والتأويل ، ودعاء الرسول مجاب ، ورجح الإمام الشافعى أن نقدم قول زيد بن ثابت ، لقول الرسول عنه : « أفرضهم زيد بن ثابت » .

ويحسن أن نقول هنا مع السيوطى إنه ربما يُحكى عن الصحابة عبارات مختلفة الألفاظ ، فيظن من لا فهم عنده أن ذلك اختلاف محقق ، فيحكيه أقوالا ، وليس كذلك ، بل يكون كل منهم ذكر معنى من الآية ، لكونه أظهر عنده ، أو أليق بحال

السائل ، وقد يكون بعضهم مخبرا عن الشيء بلازمه ونظيره ، والآخر بمقصوده وثمرته ، والكل يئول إلى معنى واحد غالبا .

فإن لم يمكن الجمع فالمتاخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا فى الصحة ، وإلا فالصحيح المقدم .

وعند ابن تيمية أن الخلاف بين الصحابة فى تفسير القرآن قليل جدا ، واتسع هذا الخلاف شيئا ما بين التابعين ، ولكنه أيضا قليل بالنسبة لمن بعدهم ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

مثال ذلك أن يعبر أحدهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر ، مع اتحاد المسمى ، كما فى كلمة « الصراط » ، فسرها بعضهم بالقرآن ، أى اتباعه ، وفسرها بعض آخر بالإسلام ، والإسلام هو اتباع القرآن ، وفسرها بعض ثالث بأن الصراط هو السنة ، وبعض قال هو العبودية ، وبعض قال هو طاعة الله ورسوله ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، ولكن كل واحد منهم ذكر صفة من صفاتها .

ومثال ذلك أيضا أن يذكر كل واحد من الاسم بعض أنواعه على سبيل التمثيل ، كما فى تفسير قوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ،

ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » . فبعض يقول : السابق الذى يصلى فى أول الوقت، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار ، وبعض يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذى يؤدى الزكاة فقط ، والظالم مانع الزكاة .

والتفسيران هنا يذكران بعض الأنواع من الاسم العام ، إذ أن « الظالم » يتناول المضيع للواجبات ، المنتهك للحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك الحرمات ، والسابق هو الذى يتقرب بالحسنات مع الواجبات .

ومثال ذلك كلمة : « تبسل » . يفسرها بعضهم بقوله : تحبس ، وبعضهم يفسرها بقوله : ترتهن . وكل من التفسيرين يعود إلى الآخر ، لأن المحبوس رهين حبسه ، والمرتهن محبوس .

* * *

ونحب أن ننبه هنا على أمر يتصل بتفسير الصحابة ، وهو أننا نجد فى بعض كتب التفسير حديثا عن مصاحف للصحابة ، فيقال فى هذه الكتب : إن الآية الفلانية جاءت فى مصحف فلان بالهيئة الفلانية ، ويذكرون كلمة او كلمتين زائدتين عن النص القرآنى المتواتر .

وهذه الزيادات ليست قرآنا ، وإنما هي تفسير للصحابة ، وبعضهم كان يكتب هذه التفسيرات فوق الكلمات القرآنية أو بجانبها في المصحف الذي كان يقرأ فيه ، فظن من لم يحقق أن تلك الزيادة من الآية ، وليست كذلك ، وإنما هي تفسير ، ولذلك يسميها البعض « قراءة تفسيرية » . والسيوطي يقول : « من يقول إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب وأساء » . وقد ذكر الرازي تفسير قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » ، ثم أشار إلى قراءة عمر التفسيرية : « وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتموه في أوله » ثم استبعد الرازي أن تكون هذه الزيادة من القرآن ، وقال : إنما ذكر هذا كالتفسير .

ويقول جولد تسيهر وهو يتحدث عن القراءات : « وطائفة اخرى من القراءات الظاهرة في هذه الدائرة ، تنشأ من إضافة زيادات تفسيرية حيث يستعان أحيانا على إزالة غموض في النص بإضافة تمييز أدق ، يحدد المعنى المبهم ، ودفعا لاضطراب التاويل » . وقد اشتهر بهذه الزيادات عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ، ويقول مجاهد : « لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج إلى أن أسأل ابن عباس في كثير من القرآن

مما سألته » وهو يقصد بالقراءة هنا القراءة التفسيرية .

ومن امثلة ذلك قوله تعالى : « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله » كتب ابن مسعود : « من أجل ماجئتكم به » . وبقية الآية : « فاطيعون » وفسرها ابن مسعود بقوله : « فيما دعوتكم إليه » .

وقوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من انفسهم وأزواجه أمهاتهم » . كتب ابن مسعود : « وهو أب لهم » .

وقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين » . أضاف ابن مسعود بعد قوله تعالى : « أمة واحدة » كلة : « فاختلفوا » تفسيراً للآية . وقوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » كتب الحسن : الورود الدخول .

وقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أضافت عائشة قولها : « صلاة العصر » .

وقوله تعالى على لسان مريم : « إني نذرت للرحمن صوما » كتب أنس بن مالك : أي صمتا .

وقوله تعالى على لسان الكافرين : « أو يكون لك بيت من زخرف » كتب ابن مسعود : بيت من ذهب . . وهكذا .

* * *

وأهم تفاسير الرواية والأثر التي تجمع بين أقوال النبي وأقوال الصحابة تفسير « جامع البيان فى تفسير القرآن » لابن جرير الطبرى ، وتفسير « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز » لأبى محمد عبد الحق بن أبى بكر غالب بن عطية الغرناطى الأندلسى ، وتفسير « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » لجلال الدين السيوطى .

والكثيرون على أن أعظم كتاب يضم المأثور من التفسير هو تفسير محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة عشر وثلاثمائة ، وهو يعد حجر الأساس فى أدب التفسير القرآنى ، وفيه بذور لإبداء النظر فى التفسير ، وفتح للباب أمام إعمال الرأى فى التفسير .

والطبرى من أعظم العلماء فى التاريخ الإسلامى ، وهو مفسر ومحدث وفقيه ولغوى ومؤرخ ، والأوربيون يسمونه « أبو التاريخ الإسلامى » ، ويقال إنه أسس مذهبا فقهيا بسحنه المستقل ، ولكن هذا المذهب لم يكتب له البقاء .

ولقد اشتهر تفسير الطبرى ، وحظى بمكانة عالية ، وحرص بعض السابقين على نسخه ، حتى روى ابن النديم أن يحي ابن عدى نسخ نسختين منه ، ويقول أبو حامد الأسفراييني :

« لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا » .

وبعض الأوربيين يقول إنه يمكن الاستغناء بتفسير الطبرى عن كل كتب التفسير المتأخرة عليه ، ولكن ياقوت يذكر أن هناك تفسيرا مفقودا لبقى بن مخلد القرطبي ، كان الأندلسيون يجعلونه فوق تفسير الطبرى الذى لا يشق له غبار .

والطبرى يسير فى تفسيره على ذكر وجوه التفسير المروية ، مع ذكر أسنادها ، منسقة بعضها عقب بعض ، ويحدث من ذلك تكرار النص مع اختلاف السند ، ولكنه لا يكتفى بالسرد ، بل ينقد أحيانا سلاسل رجال السند ، ويعبر عن ذلك بما يناسبه ، وهو يعنى كثيرا بالرواية ، ويعتمدها أساسا للصواب فى التفسير مادامت قد تسلسلت وصحت . ومتى وجد إجماع الأمة استظل به ونقد غيره ، كان يقول عن رأى مجاهد فى بعض مواطن التفسير إن رأيه « يخالف إجماع الحجة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب » .

والطبرى واسع المعرفة بقراءات القرآن ، وهو قد ألف كتابا فى القراءات ، يتكون من ثمانية عشر جزءاً ، جمع فيه كل القراءات الواردة ، وتناولها بالتمحيص والنقد .

وطريقته فى التفسير هى أن نراعى فى المرتبة الأولى المعنى الظاهر للفظ الذى لا نتركه إلا لداع وسبب ، وهو يستشهد بكثير من القصص التى تبدو فيها طائفة من الإسرائيليات ، وهو ينفر من التعمق الفارغ فى أمور قليلة الجدوى ، كالبحث مثلا عن أنواع الأطعمة التى كانت على مائدة عيسى التى أنزلت من السماء ، ويقول : « العلم بذلك غير نافع ، ولا صار الجهل به ضارا ، ويكفى الإقرار من القارئ بالآية بظاهر ما احتمله التاويل » . او كتعيين الدراهم المذكورة فى قوله تعالى : « بثمن بخس دراهم معدودة » فيقول الطبرى : « وليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين ، ولا فى الجهل به دخول ضر فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض ، وماعداه فموضوع عنا تكلف علمه » ويكرر الطبرى أمثال هذه الملاحظات فى مناسبات مختلفة .

ويعنى الطبرى — مع حرصه على الرواية — بالاستعمال اللغوىّ العربى ، لأن هذا الاستعمال هو المرجع الموثوق به فى تفسير العبارات التى لم يرد فى تفسيرها أثر صحيح ، وهو يكثر من الاستشهاد بالشعر العربى ، متأثرا فى ذلك بخطة ابن عباس .

وقد اتسعت شهرة الطبرى فى ذلك بما أورده من استشهادات شعرية ، واستطرادات لغوية ، واستقصاءات نحوية ، ويستعين

بكل ذلك فى التفسير ، ولكنه يقيده بعدم التعارض مع ما صح من الرواية الموثوق بها ، فمع كثرة استشهاده لا يترك مذهبه الأساسى ، وهو الاعتماد على الرواية والنقل ، وهو يتبع مذهب أهل السنة فى غالب مواقفه . ويعد كتاب الطبرى مرحلة أولى فى التفسير ، مهدت لفتح الباب أمام المرحلة الثانية من مراحله .

ولأهل السنة نقد لابن جرير الطبرى فى بعض المسائل ، كما أن الحنابلة يلومونه على مواقفه فى بعض آخر ، إذ كانت بعض اقواله يشمون منها رائحة مذهب المعتزلة ، وإن كان هو قد عارض المعتزلة فى كثير من المسائل ، ورد عليهم فيها .

والطبرى يرفض فى تفسيره طريقة الذين يهيمون بالمعانى المجازية ، ويفضل فهم المعنى على وجه يطابق اللفظ .

وقد يسوق الطبرى آراء مختلفة فى المعنى ، ثم لا يتبعها برأى خاص له ، أو لا يجزم بتاييد واحد منها ، ولكن هذا قليل . ومع هذا لم يقف الطبرى موقفا سلبيا دائما فى مسائل الخلاف المتنازع عليها فى مسائل الاعتقاد ، بل كانت له تفصيلات واستطرادات وآراء تعد معبرا واضحا إلى مدرسة التفسير التى تلت عصره ، وهى مدرسة التفسير بالرأى ! .

بل إن تفسير ابن جرير نفسه يظهر فيه أثر التفسير بالرأى او بالنقل ، وذلك حينما يختار أحد الأقوال ، ويرجح بعض المعانى على بعض ، ويقول مثلا : « والرأى عندى ... » .

ولاشك ان هذا الاختيار يدل على نظر وتامل فى نواح مختلفة .

* * *

وقد جاءت طائفة من التابعين فاكثروا من رواية الروايات فى التفسير ، مثل الضحاك بن مزاحم الهلالى المتوفى سنة ١٠٢ هـ ، أو ١٠٥ ، وعطية بن سعد العوفى المتوفى سنة ١١١ هـ ، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ، وأسباط بن نصر ، ومحمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، ومحمد بن مروان السدى الصغير ، ومقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وأبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وغيرهم .

وقد وجهت انتقادات إلى بعض روايات لهؤلاء ، وقد ذكرها السيوطى فى كتاب « الإتقان » وصاحب كتاب « التذهيب » . وينسب إلى الإمام أحمد بن حنبل أنه قال كما مر : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى » أى ليس لها إسناد ،

لأن الغالب عليها المراسيل من الروايات ، ويقول ابن تيمية : « الموضوعات فى كتب التفسير كثيرة » ويقــول أيضاً : « وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة » .

ولـكن ليس معنى هذا أن يقول قائل مثل « كارادهڤو » قولته الجريئة : « إن أغلب هذه الأحاديث موضوع » اويقول : « ويذهب النقاد المحدثون إلى أنه لاأمل فى العثور فى هذه التفاسير على أخبار صحيحة عن أسباب نزول القرآن وإذاعته فى الناس » فهذا حكم جائر غير سليم .

لأن التفاسير المعتبرة فيها كثير من الأحاديث الصحيحة ، و « كاراده ڤو » نفسه يقول عن الطبرى : « ويشمل تفسيره المطول كثيراً من الأحاديث المسندة الصحيحة » . ذكر ذلك فى دائرة المعارف الإسلامية .

وقد يكون من الاستعراض لجوانب الموضوع هنا ان نطالع كلمة « جولد تسهر » التى تتعرض للحديث عن طريقى العقل والنقل فى التفسير فتقول :

« لم يأت القرآن لتقرن بالنص الإلهى استنباطات نظرية فلسفية ، ولا ليضرب بعضه ببعض ، بل المعول هنا على كلمة القرآن : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم

حتى يخوضوا فى حديث غيره) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .

وإلى مثل ذلك يرجع — فيما يبدو — ماروى على أنه حديث للرسول ﷺ ، يخشى فيه على مستقبل أمته من ثلاث ، منها : ظهور رجال يفسرون القرآن بما لايقتضيه التفسير الصحيح : (رجال يتاولون القرآن على غير تأويله) .

وإذا ورد تحذير من التفسير ، وإذا قيل إن السلف من أئمة الإسلام الراسخين كانوا يعرضون عن ذلك التفسير كارهين ، فإن موضوع هذا الرفض الشديد ، هو هذا الاتجاه على وجه الخصوص ، فإن القرآن لايجوز تفسيره بالرأى ، أى بالتفكير الذاتى ، ولا بالهوى ، أى الميل الاختيارى ، وإنما الطريقة الصائبة الفذة فى تفسير الكتاب الحكيم هى : التفسير بعلم ، ومن فسر القرآن بالرأى أو بالهوى أى بغير علم ، فقد كفر .

وقد نُسب إلى أبى بكر هذا الأثر : (أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا قلت فى القرآن برأيى ، أو بمالا أعلم) ؟ . ولكن تحت لفظ (علم) لايفهم عالم الدين الإسلامى أصلا نتاج التفكير الخاص ، ولا حتى الخبر المتلقى من مصدر غير مختص ، وإنما يفهم التعاليم المسندة إلى مصادر العلم المعتد بها وحدها ، أى المسندة بالرواية إلى الرسول نفسه ، أو إلى صحابته .

فمن يستطيع أن يسند قوله إلى هذه المصادر ، فهو وحده الذى عنده العلم ، وكل ماعدا ذلك فهو رأى ، أو هوى ، أو حدس وتخمين ، ولا حق له ان يسمى علما .

بل لقد رُوى حديث — وإن طعن فيه — يقول : إن التفسير بالرأى خطا ، وإن كان صوابا : (من قال فى القرآن بالرأى فاصاب فقد أخطا) .

وإذن فالذى يعد فى نطاق علوم الدين فى الإسلام علماً حقيقيا هو مايرجع إلى أقدم الثقات الذين هم اهل للعلم عن طريق سند الرواية الشفوية الصحيح فحسب . وكذلك فى فروع أخرى للعلم كان المعول فى الزمن الأول على هذا القالب من الرواية فقط ، من حيث عدها أمارة على اليقين ، وهذا ايضاً فى التاريخ على وجه الخصوص ، فمعرفة حدث تاريخى يمكن أن تكون جديرة بالتصديق فقط إذا قررت بوساطة سلسلة من السند المتصل بشاهد عيان جدير بان يوثق به » [١] .

كما أن علماء الحديث لم يتركوا الأحاديث التى جاءت فى كتب التفسير بغير تمحيص وفحص ، بل تتبعوها وذكروا لكل حديث ماله وما عليه ، ومن هذا التمحيص يتبين لنا أن هناك عدداً

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٧٩ — ٨١ .

كبيراً من الأحاديث الصحيحة التى استشهد بها المفسرون ، ويتبين لنا ان المدسوس أو الموضوع من هذه الأحاديث محدود ، وتمكن معرفته بالرجوع إلى الكتب التى محصت الروايات الواردة فى كتب التفسير ، ونذكر منها على سبيل المثال كتاب « الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف » للإمام الحافظ أمير المؤمنين فى الحديث أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ ﻫ . وهو يقول فى فاتحة هذا الكتاب :

« أما بعد فهذا تخريج الأحاديث الواقعة فى التفسير المسمى بالكشاف ، الذى أخرجه الإمام أبو محمد الزيلعى . لخصته مستوفيا لمقاصده ، غير مخل بشىء من فوائده ، وقد كنت تتبعت جملة كثيرة ، لاسيا من الموقوفات ، فاته تخريجها ، إما سهوا وإما عمدا ، ثم أخرت ذلك وأضفته إلى المختصر من هذا التلخيص ، واقتصرت فى هذا على تجريد الأصل ، والله المستعان » .

ثم هذا مثلا هو عبد الله بن عباس الذى عرفنا أنه كان يسمى « ترجمان القرآن » قد عرفنا عنه أيضاً أنه روى ألف حديث وستمائة حديث وستين حديثاً ، وكثير من هذه الأحاديث عرفنا أنها

صحيحة ، لأنها جاءت فى صحيحى البخارى ومسلم ، ومنها عدد اتفقا عليه ، ومنها عدد جاء فى البخارى ، والباقى جاء فى مسلم ، وكثير من هذه الأحاديث يتعلق بالتفسير من قريب أو من بعيد ، كما رووا أن مايقرب من نصف الأحاديث الواردة فى التفسير مسندة إلى ابن عباس .

تفسير الفهم والتأويل

إذا كان يوجد فى الآيات القرآنية مالا بد فيه من النقل ، كما إذا أردنا أن نعرف سبب نزولها ، أو نعيّن مبهمها ، أو نبين مجملها ، أو نتعرف طريقة التطبيق للحكم ، فهناك آيات لم يرد فيها نقل ، ويستطيع المتهيء للتفسير أن يفهم منها معنى مقبولا قدر طاقته ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد ذكر القرطبي فى تفسيره أن بعض العلماء قال : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول » ، ثم عقّب القرطبي على هذا بقوله : «وهذا فاسد ، لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أمر آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ، فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرأوا القرآن ، واختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبى ﷺ ، فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس وقال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » فإن كان التأويل مسموعا

كالتنزيل، فما فائدة تخصيصه بذلك ؟ . وهذا بين لا إشكال فيه» .

وخير المفسرين فهما وتاويلا هم الصحابة ، لأن القرآن نزل بلغتهم ، وهم صاحبوا الرسول ، وسألوه عما أشكل عليهم ، وقد كانوا متصلين بأسباب النزول ، وأكثر هؤلاء تفسيراً عبد الله بن عباس ، وقد جُمع عنه تفسير كامل كما ذكرنا ، وتفسيره أصح التفاسير — بعد تصحيح الإسناد إليه — لأن الرسول دعا له بالتاويل، ودعوته مستجابة، والصحابة قد أجمعوا على تعظيمه فى العلم عموما ، وفي التفسير خصوصاً ، وسموه البحر والحبر ، وهو من أهل بيت النبوة، وفى بيت النبوة يتنزل الوحى ويبينه الرسول .

والمرتبة الثانية من المفسرين هم التابعون ، ومن أشهر ثقاتهم : مجاهد وعطاء وقتادة والحسن البصرى ، وأبو العالية رفيع بن مهران ، ومحمد بن كعب القرظى ، وزيد بن أسلم ، ويلحق بهؤلاء عكرمة ، ثم مقاتل بن حيان ، ومحمد بن زيد ، ثم على بن أبي طلحة ، ثم السدى الكبير .

* * *

والقول فى طبقات المفسرين وتواليها وتسلسلها كثير واسع ، وقد أثبت الأستاذ أحمد رضا خلاصة لهذه الطبقات فى مقدمة

لتفسير الفضل بن الحسن الطبرسي الشيعي من كبار علماء الإمامية ، وقد جاء فيها :

« أول من تكلم فى تفسير القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ مولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) وهو أعلم المسلمين بكتاب الله وتاويله بلا مدافع ، بل هو باب مدينة العلم . قال ابن مسعود : « إن القرآن نزل على سبعة احرف ، ما منها إلا وله ظهر وبطن ، وإن عليا عنده من الظاهر والباطن » .

ثم عبد الله بن العباس حبر الأمة،وترجمان القرآن، ووارث ثلثى علوم رسول الله ، وقد دعا له النبي بقوله : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلّمه التأويل » . ولذلك كثرت الرواية فى التفسير عنه ، حتى كان ما يقارب النصف من الأحاديث الواردة فى التفسير مسنداً إليه .

ثم عبد الله بن مسعود ، ذو المقام العالى بين المفسرين ، وتالى ابن عباس فى كثرة الرواية ، وابى بن كعب ، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ والمقدّم بين القراء .

وفى الصحابة غير من ذكرنا كثيرون ، تكلموا فى التفسير ، ولكن الرواية عنهم قليلة .

وفى التابعين اشتهر على بن أبى طلحة خريج ابن عباس، وقيس بن مسلم الكوفى، ومجاهد بن جبير المكى، وقتادة ابن دعامة السدوسى، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى، وعكرمة مولى ابن عباس، وهؤلاء هم أشهر التابعين فى التفسير وطاووس بن كيسان اليمانى، وعده ابن تيمية من أعلم الناس فى التفسير كما فى الإتقان(١)، وعطاء بن أبي رباح المكى، وجابر بن يزيد الجعفى، ومحمد بن السائب الكلبي وهو علامة وقته، والحسن البصرى، وهو أشهر من أن يعرَّف، ومالك ابن أنس، وعامر الشعبي، وعطاء بن أبى سلمة، وسليمان ابن مهران الأعمش، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحى، والضحاك بن مزاحم، وعطية بن سعيد العوفى، وكثير غيرهم ممن لا يسع المقام تعدادهم.

وفى زمن التابعين دوِّن التفسير وصُنِّف فيه، وأول كتاب ظهر فى التفسير كان لسعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وستين، وكان أعلم التابعين فى التفسير، نص على ذلك قتادة، وحكاه السيوطى فى «الإتقان».

---

(١) المقصود كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» للسيوطى.

ثم أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن الكوفى القرشى المعروف بالسدى المتوفى سنة سبع وعشرين ومائة ، قال السيوطى : إن تفسيره من أمثل التفاسير ، ثم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ست وأربعين ومائة ، صاحب التفسير الكبير ، وأبو حمزة الثمالى صاحب الإمام ابى محمد على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنه ، ذكر تفسيره ابن النديم ، ثم أبو بصير الأسدى صاحب الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) ، وله تفسير جليل ، وهو من تابعى التابعين .

وممن صنف فى التفسير من التابعين جابر بن يزيد الجعفى المتوفى سنة سبع وعشرين ومائة ، ومنهم شعبة بن الحجاج ، وسفيان ابن عينية ، ومجاهد ، وهؤلاء عدا سعيد بن جبير من أهل المائة الثانية للهجرة .

وعرف بالتصنيف فى هذا العلم من أهل هذه المائة عبد الملك ابن جريج المكى الأموى بالولاء ، وزيد بن أسلم العدوى ، ومقاتل الأزدى ، ووكيع بن الجراح الكوفى ، وأبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى ، المتوفى سنة سبع ومائتين ، صاحب كتاب الرغيب فى القرآن .

وفى المائة الثالثة اشتهر بالتفسير محمد بن جرير الطبرى

صاحب التفسير الكبير الذى جمع فاوعى ، وهو البحر الذي ورده أكثر من تاخر عنه من المفسرين ، ومحمد بن خالد البرقى صاحب كتاب التفسير إملاء الإمام أبي محمد الحسن العسكرى (ع)، حكاه ابن شهراشوب فى معالم العلماء ، وعلى بن إبراهيم القمي ، وابن ماجة محمد بن يزيد القزوينى المحدث المشهور ، والأشج أبو سعيد بن راهويه .

وفى المائة الرابعة عُرف النيسابورى، وأبو الحسن الأشعرى إمام أهل السنة ، وعلى بن عيسى الرمانى النحوي المشهور ، وأبو هلال العسكرى ، وعبد الله بن محمد الكوفى ، وابن حبان ، وابن فورك .

وفى المائة الخامسة عرف شيخ الطائفة الإمامية ، وفقيهها الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى صاحب كتاب « البيان الجامع لكل علوم القرآن » ، ثم السيد الشريف الرضى الموسوى صاحب كتاب « حقائق التنزيل ودقائق التاويل » ، وإمام الحرمين أبو المعالى الجوينى ، وعبد الملك الثعالبي .

وفى المائة السادسة اشتهر جار الله الزمخشرى صاحب « الكشاف » ؛ الذى لم يؤلف فى بابه مثله ، جودة وإتقانا ، واشتهر أبو على الفضل بن الحسن الفاضل الطبرسى صاحب كتاب

« مجمع البيان » وهو التفسير المشهور الذى لم ينسج على منواله ابدع منه ، وابو البقاء العكبرى ، وابو محمد البغوى ، وابن الدهان .

وفى المائة السابعة اشتهر البيضاوى صاحب التفسير المشهور المسمى بانوار التنزيل ، الذى تناوله العلماء بالشروح والتعاليق ، واتخذه طلاب التفسير مناراً لهم ، وعرف ابن زرين ، والشيخ الأكبر محي الدين بن العربي صاحب الفتوحات ، وابن عقيل النحوى ، ومحمد بن سليمان البلخى المعروف بابن النقيب .

وفي المائة الثامنة عرف الشيخ بدر الدين الزركشى الفقيه الشافعى ، وابن كثير إسماعيل بن عمر القرشى ، وأبو حيان الأندلسى صاحب كتابى البحر والنهر فى التفسير ، ومحمد بن عرفة المالكى ، وابن النقاش .

وفى المائة التاسعة عرف البقاعى صاحب « نظم الدرر فى تناسب الآى والسور » ، والمولى الجامي ، وبرهان الدين ابن جماعة ، وعلاء الدين القراماني صاحب « بحر العلوم فى التفسير » ، والجلال السيوطى صاحب « الإتقان فى علوم القرآن » .

وفى المائة العاشرة عرف الشيخ على بن يونس السنباطى صاحب مختصر « مجمع البيان » ، والعلامة ابن كمال باشا أحمد بن

سليمان بن كمال الرومى ، وأبو السعود العمادى مفتى القسطنطينية صاحب التفسير الكبير المسمى « بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » الذى اشتهر صيته وانتشرت نسخه ، والشيخ أبو يحيي زكريا بن محمد الأنصارى .

وفى المائة الحادية عشرة عرف الشيخ على القارى ، والشيخ حسن البورينى ، والشيخ بهاء الدين العاملى الكركى صاحب التفسير المسمى بعين الحياة ، وهو مؤلف الكشكول ، والشيخ خير الدين الرملى ، والشهاب الخفاجى .

وفى المائة الثانية عشرة عرف الشيخ العارف عبد الغنى النابلسى صاحب التحرير الحاوى فى شرح تفسير البيضاوى ، والسيد هاشم البحرانى صاحب « البرهان فى تفسير القرآن » .

وفى المائة الثالثة عشرة اشتهر الألوسى صاحب التفسير المشهور المسمى « روح المعانى » ، والسيد محمود الحمزاوي مفتى دمشق الشام بكتابه «در الأسرار» وهو تفسير بالحرف المهمل ، وما أحوج هذا التفسير إلى تفسير .

وفى المائة الرابعة عشرة اشتهر العلامة المحقق الأستاذ الإمام محمد عبده مفتى الديار المصرية بما كان يلقيه من دروس التفسير المفيدة على طلاب العلوم فى الجامع الأزهر بالقاهرة ، سلك فيها

مسلكا رائعا ، دل على مزيد تبحر وسلامة ذوق وجامعية كبرى، وقد اقتبس دروسه هذه العلامة السيد محمد رشيد رضا ، فنشرها فى مجلة «المنار» التى تصدر عن مصر، وزاد عليها فوائد مهمة فى التفسير .

وهذا أنموذج من كتب التفسير ، وأسماء طائفة من علمائه ، ذكرناها تكملة للبحث ، وإلا فإن تعداد مفسرى كتاب الله الكريم فى كل عصر ومصر ، وفى كل لغة من لغات البشر الشائعة ، لما يفوت الإحصاء والاستقصاء . جزى الله العاملين على إعلاء كلامه ، وإحياء لغة الضاد التى لا حياة لها إلا بحياته ، وهو الكلمة الباقية الخالدة ما دامت الأرض والسماء ».

* * *

ويذكر المؤلفون فى تعاريف العلوم أن واضع علم التفسير هو الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة ، ومعنى واضعه هنا انه جامعه لامدونه ، لأن التفسير كان قد بدأ قبل مالك ، فقد راينا أن الرسول ﷺ قد فسر القرآن الكريم ، بدليل أن اصول الحديث كالموطأ وصحيح البخارى تحوى الكثير من الأحاديث المتعلقة بتفسير القرآن ، وفى البخارى بابان واسعان ، اولهما بعنوان « كتاب تفسير القرآن » والآخر بعنوان « كتاب فضائل القرآن » .

وابن خلدون يقرر أن النبي ﷺ كان يبين المجمل فى القرآن ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرفه اصحابه ، فعرفوه ، وعرفوا اسباب نزول الآيات ، ومقتضى الحال منها منقولا عنه .

ثم جدت الحاجة إلى بيان الأشياء التى تحتاج إلى بيان من القرآن الكريم ، فدفعت إلى التفسير فى أوائل العصر الأموى . وقد كان المسلمون الأولون — كما عرفنا — لا يقولون فى تفسير القرآن إلا بما نقل إليهم ، وروى عن النبي ﷺ ، وذلك لقوة تدينهم وتحرزهم ، ولعلمهم أن التفسير شىء يتعلق بكلام الله العلى الكبير ، ولم تكن الحياة قد اتسعت مناحيها أو تعددت اغراضها ، ولذلك بدأ التفسير بما نسميه « تفسير الرواية » ، أو « التفسير بالأثر » أو « التفسير بالماثور » ، وهو النص المنقول عمن يحتج بقوله ، كالرسول او كالصحابي .

ثم إن التفسير قد أخذ طريقه إلى التكامل منذ صدر الإسلام فعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة مائة وخمس يقول : « لقد فسرت ما بين اللوحين » يعنى القرآن كله ، ولابن جريج المتوفى سنة خمسين ومائة ثلاثة أجزاء فى التفسير .

وهناك من يقول إن التفسير بدا فى نهاية القرن الثانى واوائل القرن الثالث على يد الفراء المتوفى سنة سبع ومائتين ، ويقولون

إنه أول من تعرض لتفسير القرآن آية آية حسب ترتيب المصحف وفسرها على التتابع ، ولكن الأرجح هو سبق البدء في التفسير على ذلك بدليل ما قدمنا .

وهذا مثلا ابو عبد الله عكرمة مولي عبد الله بن عباس — وقد أشرنا إليه من قبل — كان كثير الرواية فى التفسير ، حتى قال قتادة : « أعلم الناس بالتفسير عكرمة » وجاء فى كتاب « رياض النفوس » لأبى بكر المالكى أنه قد اختلف العلماء بالحديث في امر عكرمة ، فنهم من وثّقه واثنى عليه ، مثل يحيي بن معين ، وعلى بن المدينى ، وأبو الحسن الكوفى ، وإسماعيل القاضى ، وضعفه غيرهم ، ولكنهم متفقون على حفظه ، ومعرفته بالعلم ، وتفسير القرآن الكريم ! .

هذا مع أن عكرمة كان من بربر أفريقيا ، اشتراه ابن عباس وأعتقه ، ولما مات عكرمة مع « كثير عزة » فى يوم واحد سنة خمس ومائة قال الناس : « مات أشعر الناس وأعلم الناس » ! .

* * *

عرفنا أن تفسير الرواية أو النقل أو الأثر كان بدء التفسير ، ويعتمد هذا التفسير فى كثير من مواطنه على إيراد « أسباب النزول » ، لأن القرآن الكريم قد نزل منجما بحسب الدواعى

والمناسبات والأسباب الداعية ، فعرفة سبب النزول معوان على فهم الآية ، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، ولأن هناك آيات إذا لم نفهمها فى ضوء السبب لنزولها ضللنا فى فهمها أو تحديد المراد منها : وليس معنى ذلك أن الآية تكون بهذا مقصورة على هذا السبب ، بل إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولكن سبب النزول يكشف لنا عن مقصد الآية من الحكم ، سواء أكان أمراً أم نهيا ، ولذلك قال الشاطبي : « معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن » .

وإذا كان يقال إن سبب نزول هذه الآية كذا ، فالمراد أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أنها مقصورة على هذا السبب دون أمثاله ، وكثيرا ما يقال « نزلت فى كذا » ويراد تصوير ماصدقت عليه الآية .

ويلاحظ أنه قد وقع اختلاف فى أسباب النزول ، ولعل السبب فى هذا الاختلاف ان بعضهم كان يريد بقوله : « أنزلت هذه الآية فى كذا » أن يستشهد بالآية على حادثة تنطبق عليها ، وقد يستنبطون الحكم من معنى الآية ، ويعبرون عن ذلك بقولهم : « أنزلت فى هذا المعنى » .

ويذكر الرواة كثيرا من الأشياء لا تعد من اسباب النزول

بالمعنى الأصلي ، مثل استشهاد الصحابة فى مناظراتهم بآية ، أو تمثيلهم بآية ، أو تلاوة النبي آية للاستشهاد بها فى كلامه ، أو رواية حديث وافق الآية فى أصل الغرض ، أو تعيين موضع النزول ، أو تعيين أسماء المذكورين بطريق الإبهام ، أو بطريق التلفظ بكلمة قرآنية ، أو فضل سور وآيات من القرآن ، أو صورة امتثاله ﷺ بامر من أوامر القرآن ، وهذا ليس من أسباب النزول فى الحقيقة .

وقد أشار كثير من السابقين إلى فائدة الوقوف علي أسباب النزول فى فهم المراد من الآيات ، حتي قال الواحدي : « لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » . وقال ابن دقيق العيد : « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » . وقال ابن تيمية : « معرفة سبب النزول معين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » .

وقد ألف في أسباب النزول ابن المدينى شيخ البخارى . والواحدى ، وابن حجر ، وألف السيوطى فيه كتابا سماه : « لباب النقول فى أسباب النزول » .

ولكن علينا أن نحترس فى هذا المجال ، لأن أسباب النزول فى كتب المفسرين قد يختلط بها ما اصطلح العلماء علي تسميته

بالإسرائيليات ، وهى القصص والأخبار التى دسها اليهود على الإسلام ، فإن اليهود قد تنقلوا فى المجتمع الإسلامي ، وبثوا فيه ما بثوا من قصصهم ومفترياتهم ، وتسرب كثير من هذه المفتريات إلى بعض المفسرين ، كما تسرب بعض المفتريات الأخرى من غير اليهود ، ولكن أكثر الافتراء كان من جهة اليهود ، وهذه المفتريات هى التى يطلق عليها العلماء اسم « الإسرائيليات » .

وأكثر هذه المفتريات لا تتعلق بالعقائد او الأحكام ، بل بالتاريخ والأخبار والفضائل ، وقد جاء من المفسرين من تصدى لهذه المفتريات وفندها .

وموقفنا من الإسرائيليات هو أن ما ثبتت صحته مما بايدينا ، مما يشهد له بالصدق ، قبلناه وخضعنا له ، وما علمنا كذبه أو مخالفته لنص إسلامى صحيح رفضناه وأبيناه ، وما هو مسكوت عنه لا نؤمن به ولا نكذبه ، ولعل الحديث النبوى التالى ورد فى مثل هذا ، وهو : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ».

بين العقل والنقل

يقول ابن خلدون فى مقدمته : « صار التفسير قسمين : تفسير نقلى ، مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وهى معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآى » وبعد أن يذكر ابن خلدون ما دخل هذا النوع من روايات اليهود والنصارى يقول : « والصنف الآخر من التفسير ، وهو ما يرجع إلى اللسان ، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة ، وتادية المعنى بحسب المقاصد والأساليب ، وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول ، إذ الأول هو المقصود بالذات ، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة » .

ومن خلال هـذا الالتقاء نشا التفسير بالرأى الذى يمنعه بعضهم مطلقاً ، ويستدل بحديث : « من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطا » : مع أن المراد بالرأى هنا — كما فهمنا — القول الذى يقال دون دليل أو برهان ، فصاحبه قد أخطأ الطريق المستقيم فى التفسير ، ولو أنه اعتمد فى تفسيره على دليل

وبرهان لكان الرأى حينئذ محموداً غير ضار .

قال الماوردى عن الحديث السابق ذكره هذه العبارة :
« قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث علي ظاهره ، وامتنع من ان يستنبط معانى القرآن باجتهاده ، ولو صحبتها الشواهد ، ولم يعارض شواهدها نص صريح ، وهذا عدول عما تعبدنا بمعرفته من النظر فى القرآن واستنباط الأحكام ، كما قال تعالى : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . ولو صح ما ذهب إليه لم يعلم شيء بالاستنباط ، ولما فهم الأكثر من كتاب الله شيئاً .

وإن صح الحديث فتأويله أن من تكلم فى القرآن بمجرد رأيه ، ولم يعرج على سوى لفظه ، وأصاب الحق ، فقد أخطأ الطريق ، وإصابته اتفاق ، إذ الغرض أنه مجرد ، وأنه لا شاهد له ، وفى الحديث : « القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على احسن وجوهه » أخرجه ابو نعيم وغيره من حديث ابن عباس ، فقوله : « ذلول » يحتمل معنيين : أحدهما أنه مطيع لحامليه ، تنطق به ألسنتهم ، والثانى أنه موضح لمعانيه ، حتى لا تقصر عنه افهام المجتهدين . وقوله : « ذو وجوه » يحتمل معنيين : أحدهما أن من ألفاظه ما يحتمل وجوها من التأويل ، والثانى : قد جمع وجوها من الأوامر والنواهى ، و الترغيب والترهيب و التحريم

وقوله : « فاحملوه على أحسن وجوهه » يحتمل معنيين ، أحدهما الحمل على أحسن معانيه ، والثانى : أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص ، والعفو دون الانتقام ، وفيه دلالة ظاهرة علي جواز الاستنباط والاجتهاد فى كتاب الله تعالى .

وهناك من يفسر « الرأى » فى الحديث بالهوى ، ولذلك قال ابن الأنبارى : « حمله بعض أهل العلم على أن الرأى معنى به الهوى ، فمن قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، فلم يأخذه عن أئمة السلف وأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف علي مذاهب أهل الأثر والنقل فيه » .

وقد تحدث جولد تسيهر سابقاً عن التنفير الوارد فى السنة من تأويل القرآن وتفسيره بالرأى ، فكان حديثه جاريا فى نفس المجرى السابق ، قال : « وإذا ورد تحذير من التفسير ، وإذا قيل : إن السلف من أئمة الإسلام الراسخين كانوا يعرضون عن ذلك التفسير كارهين ، فإن موضوع هذا الرفض الشديد هو هذا الاتجاه على وجه الخصوص ، فإن القرآن لا يجوز تفسيره بالرأى ، أى بالتفكير الذاتى ، ولا بالهوى ، أي الميل الاختيارى ، ومن فسر القرآن بالرأى (أو بالهوى) ، اى بغير علم فقد كفر » !.

وإذا كانت قد جاءت نصوص في التنفير من إعمال الرأى في التفسير كقول أبي بكر الصديق : «أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إن أنا قلت في كتاب الله برأيى » ، فقد حاول الشاطبي أن يوفق بين هذا الاتجاه والاتجاه إلى التفسير بالرأى ، فذكر أن الرأى الذى لايمكن إهماله هو ماجرى على موافقة كلام العرب ، وموافقة الكتاب والسنة ، وذلك لأمور : أحدها أن الكتاب لابد من القول فيه ، ببيان معنى ، واستنباط حكم ، ولم يرد كل ذلك عن السابقين ، فإن توقفنا تعطلت الأحكام .

وثانيها ان النبي ﷺ لم يفسر كل القرآن ، فاستفدنا أن ماذكره من تفسير نقف عنده ، وما لم يذكره يكون للرأى فيه مجال .

وثالثها أن الصحابة مع احتياطهم قالوا في القرآن بما فهموا .

وأما الرأى غير الجارى على موافقة العربية ، أو غير الجارى على الأدلة الشرعية ، فهومذموم لأنه تقوُّل على الله بغير برهان ، وفى مثل هذا جاءت كلمة عمر الفاروق : « إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتاول القرآن على غير تاويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه » . وكلمة ابن عباس : « نكره فى كتاب الله

مالا نعلم » . وكما قال مسروق : « اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله » .

* * *

ومهما يكن من أمر فقد ظهرت مدرسة تفسير القرآن بالراى والعقل ، وقوام هذه المدرسة هم « طائفة المعتزلة » . وقد بدت ملامح هذه المدرسة منذ أوائل العهد العباسى ، وإن كنا نستطيع أن نجد لهذه المدرسة بذورا أو جذورا هنا أو هناك قبل هذا العهد .

ومن أمثلة استخدام العقل والرأى فى التفسير عند أهل هذه المدرسة ، ان بعض المفسرين تكلم عن قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً » فقال : إن المقام المحمود هو ان الله تعالى يُجلس محمدا على العرش ثوابا له على تهجده ، فجاء اهل التفسير بالرأى وقالوا : إن المراد بالمقام هو مرتبة الشفاعة ، ووجدوا لهم سندا فى قول الطبرى: إن حديث الجلوس على العرش محال ، وفى إنشاده :

سبحان من ليس له أنيس ولا له على عرشه جليس !

ومن المفسرين بالرأى مجاهد المكى المتوفى سنة اثنتين ومائة ، إذ فسر قوله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلي ربها ناظرة »

بأن المراد بالنظر هنا ليس النظر بالعين ، بل هو « الرغبة فى انتظار جزاء الله » . كما يرى مجاهد أن المراد بقوله تعالى : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين» أن المسخ لم يقع على أجسامهم، بل على قلوبهم ، فصارت لهم نفوس قردة ! .. وهذا تفسير يخالف التفسير المشهور ، وهو أن المسخ وقع بالفعل فى أجسامهم وحواسهم .

ومجاهد هذا رجل له مكانته ومنزلته ، فالنووى فى «تهذيب الأسماء واللغات » يصفه بانه الإمام المشهور ، وأنه تابعى متفق على إمامته وجلالته ، وقد سمع جمعا من الصحابة وجمعا من التابعين، وخلائق لايحصون، ويقول النووى أيضاً : «واتفق العلماء على إمامته وجلالته وتوثيقه ، وهو إمام فى الفقه والتفسير والحديث » . وقال مجاهد : « عرضت القرآن علي ابن عباس ثلاثين مرة » . وقال عنه خصيف : « كان أعلمهم بالتفسير مجاهد » ويقول النووى عن مجاهد : « ومناقبه كثيرة » .

وقد توسع المعتزلة فى التفسير بالرأى ، حتى لا يقع خلاف بين النص القرآنى والعقل ، وحتى ينفوا عن الله سبحانه ما يوهم ظاهره بأنه من صفات الحوادث ، فهم مثلا حينما يتعرضون لقوله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » يقولون إن الخليل

معناه « المحتاج » ، ويستشهدون على ذلك بقول الشاعر :

وإن أتاه «خليل» يوم مسغبة   يقولَ لا غائب مالى ولا حرم

ومن المفسرين بالرأى الشريف المرتضى أبو القاسم على ابن طاهر .

وكان للتفسير بالرأى فضل فى إحياء الكثير من المفردات اللغوية والشواهد الشعرية والقواعد النحوية ، لأن المفسر بالرأى يعتمد أول ما يعتمد على مفهوم اللفظ فى اللغة ، ومن وراء هذا الاعتماد رأينا تفسيرا با كمله يكاد يكون مقصورا على العناية بالناحيتين اللغوية والبلاغية ، ونعنى به تفسير « الكشاف » للزمخشرى الذى يحدثنا فى مقدمته عن سبب تاليفه ، ويشير إلى منهجه فى التفسير ، فيقول فيما يقول على طريقته :

« ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية(١) ، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية ، وأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إلىّ مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل ، وعيون

(١) الظاهر أنه يقصد طائفة المعتزلة .

الأقاويل ، فى وجوه التأويل[١] ، فاستعفيت ، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد .

والذى حدانى على الاستعفاء ـ على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين ـ ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله ، وركاكة رجاله ، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى المعانى والبيان ؛ فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح[٢] ، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة ، وكان كلاما مبسوطا كثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والأذناب ، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم ، وأن يكون لهم منارا ينتحونه ، ومثالا يحتذونه .

فلما صمم العزم على معاودة جوار الله ، والإناخة بحرم الله ، فتوجهت تلقاء مكة ، وجدت فى مجتازى بكل بلد مَن فيه مسكة[٣] من أهلها ـ وقليل ماهم ـ عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك

(١) اسم تفسير الزمخشرى هو « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » .
(٢) لعله يقصد فواتح السور ، من أمثال : ألم ، ألمر ، حم ... إلخ.
(٣) المسكة : الشىء القليل . يقال : له مسكة من عيش ، أى قدر قليل.

الملى[1] ، متطلعين إلى إيناسه ، حراصا على اقتباسه ، فهز ما رأيت من عطفى ، وحرّك الساكن من نشاطى » .

ويمضى الزمخشرى فيحدثنا عن تلهف الأمير الشريف على بن حمزة بن وهاس إلى تفسير الزمخشرى ، كما يحدثنا عن شعوره بكبر السن ودنو الأجل ، وكثرة الإلحاح فى وضع هذا التفسير ، ثم يقول : « فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى ، مع ضمان التكثير من الفوائد ، والفحص عن السرائر ، ووفق الله وسدد ، ففُرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة ، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم ، وبركة أفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظم ، أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سببا ينجينى ، ونوراً لى على الصراط يسعى بين يدى وبيمينى ، ونعم المسئول » ! .

ويقول جولد تسيهر عن الزمخشرى : « ولم يبد مفسر نشاطا واجتهادا أكثر من الزمخشرى فى بيان الإعجاز البلاغى لنظم القرآن ، ويعلل ابن خلدون تلك الظاهرة الأدبية التاريخية المتجلية فى عناية أهــل المشرق بفن البيان العربى أكثر

(١) يقصد المقدار الذى أملاه فى الفواتح وفى حقائق سورة البقرة .

من المغاربة ، بأن الناس في المشرق على خلاف المغاربة يعنون بتفسير الزمخشرى ، وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله » .

ومنذ تفسيره الآية الثانية فى سورة البقرة يبدو منهجه واضحا ، فبعد ان يذكر الإعرابات والمحال الإعرابية فى قوله تعالى : « فيه هدى للمتقين » يعقب بقوله : « والذى هو أرسخ عرقا فى البلاغة أن يُضرب عن هذه المحال صفحا ، وأن يقال ... » ثم يمضى فى ذكر وجوه البلاغة التى تبين أن فى تناسق هـذا التعبير القرآنى أكمل وجوه التعبير الفكرى ...

ومهما يكن من أمر فإننا نلاحظ أن المفسرين - إلا ما شذ منهم أوغلا فى انحرافه - يوردون ما يكون لديهم من علم أو رأى فى الآية ، ثم يقولون : « والله سبحانه أعلم بمراده » . وهذا احتياط يدل على أنهم قد بذلوا جهدهم فى استنباطهم المعنى ، وهذا يكفيهم ، ولهم أجرهم عليه ، بقدر اجتهادهم وإخلاصهم ، ويبقى بعدذلك علم الله القوى الأعلى ، لأن القرآن جم الدلالات كثير المدارك ، حتى قال بعض السلف : « إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها » . وفوق كل ذى علم عليم .

تدرج التفسير

كان لتدرج الحياة أثره الواضح فى تدرج التفسير ، فبعد أن كان الناس يتهيبون فى الصدر الأول التعرض للتفسير ، بدأوا يقدمون عليه ، وصار الناس يقولون : إن من حق البصير باللغة والمعانى أن يتعرض للتفسير ، بل ذهب البعض إلى أن كل إنسان له الحق فى أن ينظر فى القرآن ، ويأخذ منه ما يستطيع ، وأن يستنبط منه بقدر فهمه وعقله ، بينما ظل أناس يحذّرون من التعرض لتفسير القرآن الكريم ، ويخوّفون من التهجم عليه ، وكان منهم من يتشدد فى ذلك تشددا ملحوظا واضحا ، حتى روى الإمام مالك أن سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن يقول : « إنا لا نقول فى القرآن شيئا » ! ...

ولا شك أن الذى يمنع من النظر فى القرآن مطلقا يغلو غلوا شديدا ، ومن يفتح الباب على مصراعيه يفرط تفريطا واضحا ، أو يسرف إسرافا معيبا .

ولقد بدأ تفسير القرآن بالاقتصار على المنقول ، ثم اتسع

النقل ، وداخله بعض ما ليس بصحيح ، وبدأ بعض الناس يحددون المعنى المراد من المنقول فى حدود الدلالات اللغوية ، حقيقية كانت أو مجازية ، ثم اتسعت محاولات التفهم الشخصى لهذه المنقولات ، واتصلت بهذا محاولات محدودة لفهم النص القرآنى فى حدود اللغة والدلالة للكلمة .

وأخذت هذه المحاولات تتسع وتنفسح ، فإذا التفسير العقلى يشيع ويذيع ، حتى تغلب على كثير من التفاسير صبغة العقل أكثر من التقيد بالنقل ، فإذا كان تفسير كتفسير الطبرى يعنى بالروايات والمنقولات ، ويقتصر على اختيار رأى فيها ، فإن تفسيراً كتفسير الرازى قد توسع توسعا ملحوظا فى استخدام العقل ، ولم يذكر من المنقولات إلا اليسير .

ويقول « جولدتسهر » عن الرازى : « وقد عمد المتكلم الكبير والفيلسوف الدينى : فخـــر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ — ١٢٠٩ م فى تفسيره العظيم للقرآن (مفاتح الغيب) الذى ينبغى عده خاتمة أدب التفسير المثمر الأصيل ، إلى الاستمرار على ملاحظة ما تستنبطه مدرسة المعتزلة عن طريق التفسير ، والرد عليها من حين إلى آخر بطريقة وافية » .

ويروى أن الرازى مات قبل إتمام التفسير ، وأتمه تلميذه

أحمد بن خليل الخوبى قاضى قضاة دمشق المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، واختصره قاضى قضاة الإسكندرية المالكى محمد بن أبى القاسم الربفى التونسى ، بعنوان : التنوير فى التفسير ، مختصر التفسير الكبير ، ومنه مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس ، فى خمسة أجزاء .

وتعددت مناحى المفسرين فى هذا المجال ، فهناك متحرز يقتصر على المنقول ، وهناك من يجمع بين المنقول والمعقول ، مع اتساع النقل عند البعض ، واتساع العقل عند البعض الآخر ، وهناك من يسرف فى استخدام العقل ... إلخ .

* * *

وكثر المفسرون ، وسلك كل واحد منهم طريقا ، فنهم من عنى بتفسير الغريب من الكلمات كالزجاج والواحدى ، ومنهم من عنى بالروايات كالطبرى ، ومنهم من عنى بالوجوه البلاغية كالزمخشرى ، ومنهم من عنى بالقصص والأخبار كالثعالبى والخازن ، ومنهم من عنى بالعلوم العقلية كالرازى ، ومنهم من عنى بالناحية الإعرابية ، ومنهم من عنى بالأحكام الفقهية ، ومنهم من عنى بالحديث عن العقائد وأمور التوحيد ، ومنهم من عنى بالمواعظ والرقائق ، ومنهم من عنى بالإشارات الصوفية ،

ومنهم من بسط الحديث كالألوسى ، ومنهم من أوجز واختصر كتفسير الجلالين ، وهكذا ...

ويرى الشيخ محمد عبده أن المرتبة العليا للتفسير لا تتم بالاقتصار على ناحية من هذه النواحى مهما كانت ذات منزلة ومكانة ، بل تتم بأمور منها : فهم حقائق الألفاظ القرآنية والمراد منها ، وفهم الأسلوب والتفطن لنكته ومحاسنه ، وعلم أحوال البشر ، والعلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، والعلم بسيرة النبي ﷺ .

وكذلك كثرت المذاهب التى تسيطر على التفاسير ، فهناك تفاسير سلفية محافظة ، وتفاسير خلفية مجددة ، وتفاسير صوفية رمزية ، وتفاسير شيعية أو غالية أو باطنية ، وتفاسير علمية أو فلسفية ، وتفاسير تاريخية أو قصصية ... إلخ .

وقد حاولت كل طائفة أن تتلمس فى الآيات الكريمة ما يؤيد مبدأها أو ينصر رأيها ، فالمعتزلة مثلا يرون عدم الشفاعة ، فيستدلون على ذلك بمثل قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة » وقوله : « لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » . ولكن أهل السنة الذين يقولون بالشفاعة ، يردون على المعتزلة فى هذا ، ويقولون

إن الحساب يوم القيامة لا ينتهى فى يوم واحد ، بل هو فى أيام كثيرة ، وكل يوم منها كخمسين ألف سنة ، فهناك أيام لا مجال فيها للشفاعة ، وهناك أيام فيها مجال للشفاعة .

وقد تركب بعض الطوائف شططا فى تاويلها للنص القرآنى حتى تنصر به رأيها وفكرتها ، كما فعل المعتزلة فى الآية الكريمة : « وكلّم الله موسى تكليما » ؛ فلم يجعلوا اللفظ « كلّم » من مادة (الكلام) ، بل جعلوه من مادة « الكَلْم » بفتح الكاف وسكون اللام ، بمعنى الجرح ، وقالوا : إن المعنى هو : جرح الله لموسى باظفار المحن ومخالب الفتن ؛ وذلك لكى يؤيدوا مذهبهم .

ومثل هذا ما فعلوه فى قوله تعالى : « وقالوا قلوبنا غُلْف » فبدلا من أن يقراوا كلمة « غلف » بضم الغين وسكون اللام ، قرأوها بضم الغين واللام ، أى جمع غلاف ، أى وعاء ، كانهم يفتخرون بان قلوبهم أوعية للعلم . وإنما لجأ المعتزلة إلى هذا التحوير حتى لا يقال إن طبيعة قلوبهم هى المانع من قبول الإسلام فلا يكون عليهم ذنب فى الكفر ، لأنهم هكذا خلقهم الله ! ...

* * *

وشهدت المكتبة العربية والإسلامية مجموعة هائلة ضخمة من التفاسير غير التفاسير التى اشتهرت وذاعت ، فكان هناك تفسير لشيخ المعتزلة عمرو بن عبيد نقله عن الحسن البصرى ، وتفسير يسمى « المختزن » لأبى الحسن الأشعرى ، لم يترك فيه آية تعلق بها مِدّعى إلا أبطل حجته ، وجعلها حجة لأهل الحق ، وتفسير للإمام الجوينى ، وهو تفسير كبير ، وتفسير للإمام القشيرى ، وهو أيضا تفسير كبير ، وتفسير لأبى طالب الفضل بن سلمة الكوفى يسمى « معانى القرآن » ، وتفسير لابن الأنبارى الذى قيل إنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا من تفاسير القرآن ، وله كتاب « مشكل القرآن » ، وتفسير لأبى هلال العسكرى ، ويسمى « المحاسن فى تفسير القرآن ». وهناك مئات ومئات من كتب التفسير ، ولا شك أن فيها الغث والسمين ، والعالى والنازل .

وتثبت هنا كلمة للمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « إعجاز القرآن » عن كثرة التفاسير يقول فيها : « إنه لا يُعرف فى تاريخ العالم كله — من لدن أرخ الناس — كتاب بلغت عليه الشروح والتفاسير والأقوال والمصنفات المختلفة ما بلغ من ذلك على القرآن

الكريم ولا شبيها به ، ولا قريبا منه ، حتى فسرته الروافض بالجفر (١) على فساد ما يزعمون وسخافة ما يقولون ، وعلى سوء الدعوى فيما يدعون من علم باطنه بما وقع إليهم من ذلك الجفر .

واستنبط منه غيرهم إشارات من الغيب بضروب من الحساب ، كهذا الذى ينسبونه إلى الحسن بن على رضى الله عنه من أن رسول الله ﷺ رأى فى رؤياه ملوك بنى أمية رجلا رجلا ، فساءه ذلك ، فأنزل الله عليه ما يسرى عنه من قوله فى القرآن : « إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر » . قالوا : يعنى بألف شهر مدة الدولة

---

(١) الجفر : جلد ادعى الشيعة أن الإمام كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إلى علمه ، وكل ما يكون إلى القيامة . والمراد بالجفر رق صنع من جلد البعير ، ونقل ابن خلدون ان الجفر كان جلد ثور صغير ، وأن هارون العجلى روى ما فيه عن جعفر الصادق وكتبه فى كتاب سماه الجفر . قال : « وكان فيه تفسير القرآن ومافى باطنه من غرائب المعانى » .

يقول الرافعى تعليقا على ذلك : « وعندنا أن كل ذلك موضوع وباطل ، وأن الكلام فيه أسلوب من أساليب التقصص ، وضرب من التهويل والمبالغة ، ولا نظن أن علم ماكان وما يكون شىء يسعه أو يسع الرمز إليه جلد ثور ، إلا أن يكون هذا الثور هو الذى قيل فيه إنه كان يحمل الأرض قديماً على أحد قرنيه » ! .

الأموية ، فقد كانت أيامها خالصة ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ، مجموعها ألف شهر سواء.

وحتى زعم بعضهم أن الكلمات التي في اوائل السور إنما تحتوى مدد أعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة ، وإن فيها تاريخ ما مضى وما بقي ، مضروبا بعضها في بعض ، إلى كثير من مثل هذا مما يخطئه الحصر ، وإنما أشرنا إلى بعضه لغرابته ، ولأن أغرب ما فيه أنه عند أهله من بعض ما يفسر به القرآن.

وقد أوردنا في باب الرواية من التاريخ ان أبا على الأسوارى القاضى البليغ ، فسر القرآن بالسير والتواريخ ووجوه التاويلات ، فابتدأ في تفسير سورة البقرة ، ثم لبث يقص ستا وثلاثين سنة ، ومات ولم يختمه ، وكان ربما فسر الآية الواحدة في عدة أسابيع ، لا يني ولا يتخلف.

وليس في هذا الخبر شيء من المبالغة أو التزيد ، بل عسى أن يكون الأمر مع أهل التحقيق والاطلاع أبلغ منه. وهذه كتب التفسير التي عدها صاحب (كشف الظنون) وسرد أسماءها في كتابه ، تبلغ ثلاثمائة ونيفا ، والرجل إنما عد بعضها كما يقول.

وانت فلا يذهبن عنك أن كل كتاب منها ، فإنما هو في المجلدات

الكثيرة إلى مائة مجلد ، وإلى ما يفوت المائة أحيانا ، فقد رأينا فى بعض التراجم أن أبا بكر الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ صنف كتاب (الاستغناء) فى تفسير القرآن فى مائة مجلد ، وكان منفردا فى عصره بالإمامة فى أنواع القراءات والعربية وفنون كثيرة من العلم . وذكر الفيلسوف (أرنست رينان) أنه وقف على ثبت يدل على أنه كان فى إحدى مكاتب الأندلس التى أحرقت : تفسير للقرآن فى ثلاثمائة مجلد ، وذكر الشعرانى فى كتابه (المنن) تفسيراً قال إنه فى ألف مجلد .

وهذا كله غير ما افرد بالتصنيف من الكتب والرسائل التى لا تحصى فى مسائل من القرآن ، وفى مشكله وغريبه، ومجازه ومعانيه ، وضمائره وشواهده ، وأسلوب نظمه، والمتشابه من آياته ، وأمثاله ، وحروفه وإعرابه، وأسمائه وأعلامه ، وناسخه ومنسوخه ، واسباب نزوله ، إلى كثير من مثل ذلك مما حفيت فيه أقلام العلماء ، بحيث لا يعلم إلا الله وحده كم يبلغ ما وضع لخدمة كتابه الكريم ، ولا يعلم الناس من ذلك إلا أنه معجزة من معجزات التاريخ العلمى فى الأرض ، لم يتفق له فى ذلك شبيه ، من أول الدنيا إلى اليوم ، ولن يتفق » ! ...

ويشير السيوطى فى « الإتقان » إلى كثرة التفاسير واختلاف درجاتها وقيمتها ، فيقول :

« ثم ألف فى التفسير خلائق ، فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال تترى[1] ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من يسنح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شئ يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه من يجىء بعده ، ظانا أن له أصلا ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم فى التفسير ، حتى رأيت من حكى فى تفسير قوله تعالى : « غير المغضوب عليهم » نحو عشرة أقوال ، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم ، حتى قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى ذلك اختلافا بين المفسرين .

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا فى علوم ، فكان كل منهم يقتصر فى تفسيره على الفن الذى يغلب عليه ، فالنحوى تراه ليس له هم إلا الإعراب ، وتكثير الأوجه المحتملة فيه ، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته ، كالزجاج والواحدي فى البسيط ، وأبى حيان فى البحر والنهر ؛ والأخبارى ليس

(١) تترى : أصلها وترى ، قلبت الواو تاء ، والمعنى : متتابعة .

له شغل إلا القصص واستيعابها ، والأخبار عمن سلف ، سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي ، والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه ، من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية ، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي ، وصاحب العلوم العقلية — خصوصا الإمام فخر الدين[(١)] — قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها ، وخرج من شيء إلى شيء ، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية .

قال أبو حيان في البحر : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة ، لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير[(٢)]. والمبتدع ليس له قصد

---

(١) يقصد فخر الدين الرازي صاحب تفسير « مفاتح الغيب » .

(٢) هناك من يدافع عن الرازي في هذا المجال ، ففي آخر تفسيره نجد مصححه يقول عنه: « وما أتى على محل خلاف إلا ويورد كل ما قيل في المقام ، ويذكر ما استدل به صاحب كل قيل ، ثم يكر بالنقض على دليل المرجوح من الأقاويل ، ويعضد الراجح منها بمقدمات يقينية ، ويدعمها بالأدلة العقلية والنقلية ، فهو بحر زاخر ، يستمد منه أرباب التفاسير طرا ، وجدير بأن يقال فيه : كل الصيد في جوف الفرا ، وكل ما ذكره في إيضاح المقام لفهم كلام الله ، وتبين معناه من مبناه ، =

إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد ، بحيث أنه متى لاج له شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعا له فيه أدنى مجال سارع إليه » .

* * *

وكما اتسع نطاق التفسير اتسعت شقة الخلاف فيه بين المفسرين ، وكان الاختلاف بين هؤلاء المفسرين يأخذ طابعا حادا ، يبلغ العداوة والاعتداء ، ومن أمثلة ذلك أنه في سنة سبع عشرة وثلاثمائة ثار في بغداد خلاف شديد حول تفسير الآية : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

فالحنابلة ومنهم إسحاق المروزى قالوا : إن المقام المحمود هو قعود النبي على العرش يوم القيامة جزاء تهجده ، والمعتزلة وأهل السنة قالوا إن المقام المحمود هو مرتبة الشفاعة ، وتحمس كل فريق لرأيه ، حتى وقع صدام بين الفريقين قتل فيه بعض الناس .

= لا كما يزعمه بعض الجهلة ، من أن ما ذكره الفخر خروج عن التفسير إلى مباحث الفلسفة ، فإن هذا باطل مبنى على الحدس ، مخالف لما هو مشاهد بالحس ، ولو اطلع ذلك الزاعم على ما نمقه الفخر بالبنان ، لقال بملء فيه : ليس الخبر كالعيان » . مفاتح الغيب ج ٨ ص ٥٦٦ .

ولما قال الطبرى : إن حديث الجلوس على العرش محال كما سبق ، وأنشد قول الشاعر :

سبحان من ليس له أنيس   ولا له فى عرشه جليس

ثار عليه طائفة من الحنابلة ، وقذفوه بالمحابر ، وقذفوا داره بالحجارة ! ...

التفسير العلمي

القرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية، وتشريع وأخلاق، وفيه مع ذلك آيات تشير إلى حقائق علمية، وتحرض على التطلع والبحث والتنقيب، وقد اتجه بعض المسلمين منذ القدم إلى إيجاد رابطة بين القرآن الكريم والعلم، واجتهدوا في استنباط طائفة من العلوم من آيات القرآن، وتعددت هذه المحاولة، واتسع نطاقها، وكان من ورائها — دون شك — ثمرات وفوائد.

ويقول الرافعي: «استحدث بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه. على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة، ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة، لو تدبر القرآن واحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوي عليه أمر من أمره. لاستخرج منه آيات كثيرة تومىء إلى حقائق العلوم، وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها، وإن لم تسمها باسمائها.

بلى ، وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعوناً على تفسير بعض معانى القرآن ، والكشف عن حقائقه ، وإن فيها لجماما(١) ودربة لمن يتعاطى ذلك ، يُحكم بها من الصواب ناحية ، ويحرز من الرأى جانبا ، وهى تفتق له الذهن ، وتواتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه ، وتخرج له البرهان ، وإن كان فى طبقات الأرض ، وتنزل عليه الحجة ، وإن كانت فى طباق السماء .

ولا جرم أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها ، واتصال آثارها الصحيحة ، بالنفوس الإنسانية ، إلى غاية واحدة ، وهى تحقيق الإسلام (٢) ، وأنه الحق الذى لا مرية فيه ، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأنه لذلك هو الدين الطبيعى للإنسانية ، وسيكون العقل الإنسانى آخر نبى فى الأرض ، لأن الذى جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس ، إذ جاءهم بهذا الدين الكامل ، ولا حاجة بالكمال الإنسانى لغير المعقول ، ينبه إليه

(١) يقال : الفرس فى جمامه ، بفتح الجيم والميم ، والكلمة تدل على الكثرة والاجتماع ، وجمام الفرس هو راحته ، لأنه يكون مجتمعاً غير مضطرب الأعضاء . والجموم : البئر الكثيرة الماء ، واجم الفرس : رجعت إليه قوته واجتمعت .

(٢) أى إقامة الدليل على أنه حق من عند الله .

بعضها بعضا ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز فى الأرض .

وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم ، وإلى تمحيصها وغايتها ، على ما وصفناه آنفا ، وذلك قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ؟ . .

ولو جمعت انواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت فى معانيها من قوله تعالى : « فى الآفاق وفى أنفسهم » . هذه آفاق وهذه آفاق أخرى ، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الأفهام شيء .

ذلك وإن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطيء الناس فى بعض تفسيره على اختلاف العصور ، لضعف وسائلهم العلمية ، ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه ، فكلما تقدم النظر وجمّت[1] العلوم ، ونازعت إلى الكشف والاختراع ، واستكملت آلات البحث ، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة ، حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يقطع إليها ، وحتى كأن تلك

(١) جمت العلوم : كثرت وتوافرت .

الآلات ، حينما توجه لآيات السموات والأرض توجه لآيات القرآن : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

* * *

وهناك من توسع فى مجال التفسير العلمى ، فقرر أن القرآن يحوى كل العلوم ، وأنه يشير إلى جميع مسائلها ، لأن الله تعالى يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، مع أن المراد بالكتاب هنا — كما حققه العلماء — هو اللوح المحفوظ .

والغزالى يؤلف كتابه « جواهر القرآن » ويخصص منه بابا يبين فيه كيف تشعبت العلوم كلها من القرآن ، ويريد بالعلوم العلوم الدينية والدنيوية واللغوية ، والعلوم التى كانت واندرست ، والعلوم التى هى كائنة ولا يعرفها الناس ، والعلوم التى ستكون فيما بعد . كل هذه العلوم عند الغزالى ليست خارجة عن القرآن ، بل هى مغترفة منه ! .

ولا شك ان هذا توسع فى القول والاستنباط ، لأن الأصل في القرآن أنه كتاب هداية وتشريع ، لا كتاب علم وتشريح ، وهذا لا يمنع أنه قد جاء فى القرآن الكريم — كما أشرنا — طائفة من الآيات الكريمة التى تعرضت لموضوعات علمية تحدثت عنها حديث التعميم والإجمال ، لا حديث التفصيل والتحليل ،

ويقول الأستاذ أمين الخولى : « الحق أن كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ، ولا يتولاه بالبيان ، ولا يكفيهم مؤونته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدوه مصدراً فيه » .

وممن أنكر التوسع فى تفسير القرآن الكريم تفسيراً علميا أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي المتوفى سنة تسعين وسبعمائة ، إذ قرر فى كتابه « الموافقات » أن الناس فى هذا الباب قد تجاوزوا الحد فى الدعوى على القرآن ، فاضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين او المتاخرين ، وينسبون إلى عبد الله بن عمر أنه قال : « إذا أردتم العلم فاثيروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين » ، ويقرر أن هذا لا يصح ولا يستقيم ، ويشير إلى ان الصحابة كانوا أعرف بالقرآن ، وما اودع فيه ، ولم يتكلم أحد منهم فى شئ من ذلك ، ثم يعقب بان القرآن تضمن علوما هى من جنس علوم العرب ، . او ما ينبنى على معهودها ، مما يتعجب منه اولو الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء باعلامه ، والاستنارة بنوره ، ويرى الشاطبي أن الاستشهاد فى هذا المقام بقوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شئ » غير مسلم ، لأن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ .

ثم يقول : « فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالا يقتضيه ،

كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة ، فبه يوصل إلى علم ما اودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ماهو اداة له ضل عن فهمه ، وتقوّل على الله ورسوله فيه » .

والذى نستطيع الجزم به هو ان القرآن الكريم لم يوجد فيه نص من النصوص يناقض حقيقة علمية ثابتة ، وهذه ناحية من نواحى إعجازه ، كما أن الذى أشار إليه من الحقائق العلمية يعد ايضاً دليلا من دلائل هذا الإعجاز ، وهذا القدر فى التدليل على إعجاز القرآن من هذه الناحية يكفى ويشفى ، وما وراءه تزيد بغير يقين ، وتعريض للنص القرآنى لبلبلة الآراء والنظريات .

ويعتبر كتاب الفخر الرازى فى التفسير من التفاسير العلمية للقرآن فى كثير من المواطن ، كما يوجد كتاب « كشف الأسرار النورانية القرانية فيما يتعلق بالأرواح السماوية والأرضية » لمحمد ابن أحمد الإسكندرانى ، وكتاب « مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد فى النصوص الشرعية » لعبد الله باشا فكرى ، وتفسير « الجواهر » للشيخ طنطاوى جوهرى ، وغير ذلك من التفاسير التى تتجه اتجاها علميا فى تفسير القرآن الكريم .

التفسير الصوفي

حاول الصوفية منــذ أقدم عصورهم أن يجدوا لمبادئهم وتعاليمهم مستندا خلال النصوص القرآنية ، وأن يتخذوا من القرآن عمدة في تاييد خطتهم وطريقتهم ، والصوفية يرون أن النص القرآني تحتجب وراء دلالته اللفظية أفــكار عميقة ومعان دقيقة ، ويرون أن المعنى الحقيقي للتنزيل الإلهـي لايتناهى عند هذه البسائط البادية من ظاهره ، وان هناك معنى ظاهراً ومعنى باطنا ، وان الأهم هو المعنى الباطنى ، ولذلك يقول ناصر الدين خسرو : « تفسير النص بالظاهر هو بدن العقيدة ، بيد أن التفسير الأعمق يحل محل الروح ، وأين يحيا بدن بلا روح » !

ويقول جولد تسيهر : « تفسير القرآن عن طريق التاويل الصوفى يبلغ من القدم مايبلغه التصوف نفسه ، فقبل الإقدام على تفسير القرآن بطريق التصوف فى مجموعة كبيرة من السياق المتصل المرتب ترتيباً منهجيا ، استقرت في الدوائر المعنية بتصيد المذاهب الباطنية عقيدة أن القرآن يحتوى فى طياته

على أكثر مما يعلمه قالبه الظاهر ، وأن الحقائق المخصصة فيه للعلماء تحلق فى مستوى رفيع على أسلوب النظر الدينى لعامة المسلمين » .

والصوفية يقولون بعلم « الإشارة » ، وهو علم ما فى القرآن الكريم من أسرار عن طريق العمل به ، ويسمون هذا : مذهب أهل الصفوة فى المستنبطات الصحيحة فى فهم القرآن . ولذلك يقول أبو نصر السرّاج الطوسى فى كتابه « اللمع » :

« المستنبطات : ما استنبط أهل الفهم من المتحققين بالموافقة لكتاب الله عز وجل ، ظاهرا وباطنا ، والمتابعة لرسول ﷺ ظاهراً وباطناً ، والعمل بها بظواهرهم وبواطنهم . فلما عملوا بما علموا من ذلك ورّثهم الله تعالى علم مالم يعلموه ، وهو علم الإشارة ، وعلم مواريث الأعمال التى يكشف الله تعالى لقلوب أصفيائه من المعانى المذخورة ، واللطائف والأسرار المخزونة ، وغرائب العلوم وطرائف الحكم ، فى معانى القرآن ، ومعانى أخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، من حيث أحوالهم وأوقاتهم وصفاء أذكارهم .

وقال الله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ! وقال النبي عليه الصلاة والسلام : (من عمل بما علم

ورثه الله تعالى علم مالم يعلم) . وهو العلم الذى ليس لغيرهم ذلك من أهل العلم .

واقفال القلوب مايقع على القلوب من الصدأ ، لكثرة الذنوب واتباع الهوى ، ومحبة الدنيا ، وطول الغفلة ، وشدة الحرص ، وحب الراحة ، وحب الثناء والمحمدة ، وغير ذلك من الغفلات والزلات ، والمخالفة والخيانات .

فإذا كشف الله تعالى ذلك عن القلوب ، بصدق التوبة ، والندم على الحوبة .[١] فقد فتح الأقفال عن القلوب ، وأتته الزوائد والفوائد من الغيوب ، فيعبر عن زوائده وفوائده بترجمانه ، وهو اللسان الذى ينطق بغرائب الحكم وغرائب العلم ؛ فإذا شرحوا هذه التقط المزيدون والقاصدون والطالبون من تلك الجواهر بآذان واعية وقلوب حاضرة ، فماشوا وانتفعوا بذلك وأعشوا .

وقد قال الله عز وجل : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) . فدل على أن بتدبرهم فى القرآن يستنبطون ، إذ لو كان القرآن من عند

(١) الحوبة : الإثم ، كالحوب ، وفى القرآن الكريم : « إنه كان حوبا كبيرا » وفى الحديث : « رب تقبل توبتى : واغفر حوبتى » .

غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. ثم قال: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) يعني من أهل العلم، وقالوا: أولو الأمر هاهنا أهل العلم، فقد بيّن هاهنا خصوصية لأهل العلم وخصوصية لأهل الاستنباط من أهل العلم.

وقد روى فى الخبر: (أن رجلاً جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: يارسول الله، علمنى من غرائب العلم، فقال: (وما عملت فى أول العلم؟ أحكم أول العلم، ثم تعال حتى أعلمك غرائب العلم أو كما قال» ا.

والصوفية أيضا يقولون بأن تحت كل حرف من حروف القرآن كثيراً من الفهم، وهو مذخور لأهله على قدر ماقسم لهم من ذلك، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: «وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين» وقوله: «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم».

وقالوا إن معنى «من شىء»: من شىء من علم الدين، وعلم الأحوال التى بين الخلق وبين الله تعالى، وغير ذلك، وإنما يصل الإنسان إلى ذلك إذا تدبر فى القرآن وتفكر وتيقظ وأحضر قلبه عند تلاوته، لأن الله تعالى يقول: «كتاب

انزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب » .

والمهم هنا هو حضور القلب ، لقوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » . اى حاضر القلب .

وقال أبو سعيد الخراز : « إذا كان العبد مجموعا على الله تعالى ، لاتنصرف منه جارحة إلى غير الله عز وجل ، فعندها تقع له حقائق الفهم عند تلاوة كتاب الله عز وجل ، الذى ليس مع الخلق » . وقال ايضاً : « كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله عز وجل على قدر قربك وحضورك عنده ، فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر ، وإذا سمعت بقوله : (ألم ، ذلك . .) فللألف علم يظهر فى الفهم غير مايظهر اللام ، وعلى قدر المحبة ، وصفاء الذكر ، ووجود القرب ، يقع التفاوت فى الفهم » !!...

وجاء فى « اللمع » أن سهل بن عبد الله رحمه الله قال : « لو اعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ماجعل الله تعالى فى آية فى كتاب الله تعالى من الفهم ، لأنه كلام الله تعالى وصفته » .

وكما أنه ليس لله نهاية ، فكذلك لانهاية لفهم كلامه ،

وإنما يفهمون على مقدار مايفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه . وكلام الله غير مخلوق ، فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق ، لأنها محدثة مخلوقة .

ويروى أبو عبد الرحمن السلمى فى كتابه «طبقات الصوفية» أن أحمد بن أبى الحوارى قال : « إنى لأقرأ القرآن ، فانظر فى آية ، فيحار عقلى فيها ، واعجب من حفّاظ القرآن : كيف يهنيهم النوم ، ويسعهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن ، أملو فهموا مايتلون ، وعرفوا حقه ، وتلذذوا به ، واستحلوا المناجاة به ، لذهب عنهم النوم ، فرحا بما رُزقوا ووُفّقوا » ا .

والصوفية يقررون ، ويكررون تقريرهم ، أن طريق الفهم الدقيق العميق للقرآن الكريم مفتاحه العمل بالقرآن ، ولذلك يقول أبو سعيد رحمه الله : « أول الفهم لكتاب الله عز وجل العمل به ، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط ، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقول الله عز وجل : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » وقال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

كما يرى الصوفية أن الذين تنكشف لهم الخزائن المذخورة

تحت كل آية ، بل تحت كل حرف فى القرآن الكريم ، إنما هم الراسخون فى العلم ، فيقول أبو بكر الواسطى : « الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم ، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات ، فانكشف لهم من مذخور الخزائن ، والمخزون تحت كل حرف وآية ، من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدر والجواهر ، ونطقوا بالحكم » .

ويبالغ الطوسى فى وصف هؤلاء الراسخين مبالغة ملحوظة ، فيقول : « ومنهم من كانت البحار عنده كتفلة فيما شاهد من المستاثرات ، يعنى مستاثرات العلم الذى استاثر الله تعالى به أنبياءه ، وخص بذلك أولياءه وأصفياءه ، فغاص بسره عند صفاء ذكره ، وحضور قلبه ، فى بحار الفهم ، فوقع على الجوهر العظيم ، وهو الذى علم مصادر الكلام من أين ، فوقع على العين ، فاغناهم عن البحث والطلب والتفتيش » ! .

* * *

وقد شغل فريق من الصوفية أنفسهم بتفسير الحروف فى القرآن الكريم ، وبيان علاقة بعضها ببعض . ومن أمثلة ذلك ما ذكره الطوسى من أن جميع ما أدركته العلوم وألحقته

الفهوم : ما عبر عنه ، وما أشير إليه ، مستنبط من حرفين من أول كتاب الله تعالى ، وهو قوله : « بسم الله » ، « والحمد لله » لأن معناه : بالله ولله ، والإشارة فى ذلك أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركته فهومهم ، فليست هى قائمة بذاتها ، وإنما هى بالله ولله ! .

وسئل الثعلبي عن الإشارة فى « الباء » من : « بسم الله » ، فقال : أى بالله قامت الأرواح والأجساد والحركات ، لا بذواتها . وقيل لأبى العباس بن عطاء : إلى ماذا سكنت قلوب العارفين ؟ فقال : إلى أول حرف من كتابه وهو « الباء » من : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فإن معناه أن بالله ظهرت الأشياء ، وبه فنيت ، وبتجليه حسنت ، وباستتاره قبحت ومججت ، لأن فى اسمه « الله » هيبته وكبرياءه ، وفى اسمه « الرحمن » محبته ومودته ، وفى اسمه « الرحيم » عونه ونصرته ! ...

وقال الصوفية أيضا : إن اسم الله الأعظم هو « الله » ، لأنه إذا ذهب عنه الألف يبقى « لله » ، وإن ذهب عنه اللام يبقى « له » فلم تذهب الإشارة ، وإن ذهب عنه اللام الآخر بقى « هاء » ، وجميع الأسرار فى « الهاء » لأن معناه : هو ، وجميع أسماء الله تعالى إذا ذهب عنه حرف واحد يذهب المعنى ،

ولم يبق فيه موضع للإشارة ، فمن أجل ذلك لا يسمى به غير الله تعالى !! ...

وقال سهل بن عبد الله التسترى : الألف أول الحروف وأعظم الحروف ، وهو الإشارة فى الألف أى الله الذى ألّف بين الأشياء ، وانفرد عن الأشياء !! .

وهكذا يمضى هؤلاء الصوفيـة فى طريقهم الخاص بهم ، يحدثونا أنهم قد يعكفون على الآية من الآيات الليالى ذوات العدد، وهم يتدبرونها ، ويستنبطون منها ، ويرون فيها من العجائب ما يثيرهم ، ويكاد يذهب بعقولهم، حتى يقول أبو سليمان الدارانى : « ربما جاءت الآية خمس ليال ، فلولا أنى أترك الفكر فيها ماجزتها أبدا[1] ، وربما جاءت الآية من القرآن ، فيطير معها العقل ، فسبحان الذى يرده بعد ذلك » !.

وقد يعتدل هؤلاء فى إشارتهم ، فيقبل الناس كلامهم ، مثل كلام أبى بكر الكتانى حينما سئل عن قوله تعالى : « إلا من أتى الله بقلب سليم » فقال : القلب السليم على ثلاثة أوجه ، من طريق الفهم : أحدها هو الذى يلقى الله تعالى

---

(١) اى لم أنتقل منها إلى غيرها .

عز وجل ، وليس فى قلبه مع الله شريك ، والثانى هو الذى يلقى الله تعالى وليس فى قلبه شغل مع الله عز وجل ، ولا يريد غير الله تعالى ، والثالث الذى يلقى الله عز وجل ولا يقوم به غير الله ! ..

ومثل كلام شاه الكرمانى حينما سئل عن قوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين » فقال : « الذى خلقنى فهو يهدين إليه لاغيره ، وهو الذى يطعمنى الرضا ويسقينى المحبة ، وإذا مرضت بمشاهدة نفسى فهو يشفينى بمشاهدته ، والذى يميتنى عن نفسى ، ويحيينى به ، فأقوم به لا بنفسى ، والذى أطمع أن لا يخجلنى يوم ألقاه بنظرى إلى طاعتى وأعمالى ، ثم افتقر إليه بكليتى » .

ومثل قولهم فى الآية الكريمة : « هو الذى أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا » ، يقولون : (أنزل من السماء ماء) يعنى القرآن ، (فسالت أودية بقدرها) يعنى حفظتها القلوب ، بمقاديرها من القلة والكثرة ، (فاحتمل السيل زبدا رابيا) يعنى ما يحمل ألفاظه ومظاهره من معانى متشابهاتها ، حفظتها قلوب المنافقين الزائغة الشاكين المتحيرين . وإن كان المشهور فى التفسير غير ذلك .

والإمام الغزالي — الذى لا يمنع من تفسير القرآن تفسيرا صوفيا ، وإن كان يعارض التوسع فيه إلى حد الاعتماد على الرموز والإشارات — يفسر : « فاخلع نعليك » بقوله : « من يريد إدراك الوحدانية الحقيقية يجب عليه أن يطرح عن نفسه التفكير فى الحياتين الدنيا والأخرى » : أى يقبل على الله دون غرض وكل ما يفكر فيه هو رضا الله ومحبته .

ويعقب الغزالي على هذا التفسير بقوله : « لا تظن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظواهر ، واعتقادا فى إبطالها ، حتى أقول مثلا : لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله : « اخلع نعليك » ، حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما ، فلم يفهموا وجهه ، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية ، فالذي يجرد الظاهر حشوى ، والذى يجرد الباطن باطنى ، والذى يجمع بينهما كامل . . بل اقول : موسى فهم من الأمر بخلع النعلين ، اطراح الكونين ، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع النعلين ، وباطنا بخلع العالمين » . ويقصد الغزالى بالعالمين عالم الدنيا وعالم الآخرة ،

أى لم يفكر موسى فى متاع الدنيا ، ولم يقصد ثواب الآخرة ، بل قصد وجه الله وحده ! . .

وقد ينحرف بعضهم فى التأويل والاستنباط حتى يضج الناس بهم ، كما حكى عن بعضهم حين سئل عن قوله تعالى :

« وايوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر » فقال : معناه : ماساءنى الضر » ! .

وسئل بعضهم عن قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » فقال : « معنى اليتيم ماخوذ من الدرة اليتيمة التى لا يوجد مثلها » !

واغرب أحدهم فى القول إغرابا مسرفا حين قال : إن القرآن يبدأ بالباء فى قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وينتهى بالسين فى قوله : « من الجنة والناس » . ، والحرفان يكونان كلمة « بس » بمعنى : كفى . أى أن هذا القرآن كافٍ ، لا يحتاج الإنسان معه إلى غيره .

فهذا وأمثاله — كما يقول الطوسى — خطا وبهتان على الله تعالى ، وهو تحريف للكلم عن مواضعه ، والصحيح من ذلك أن لا تقدم ما أخره الله ، ولا تؤخر ما قدمه ، وأن لا تخرج فى فهم القرآن عن مدلول الكلمات العربية ، لأن القرآن كتاب أنزل بلسان عربى مبين ! .

وهناك من يؤيد التفسير الصوفى ويدافع عنه ، فالتفتازانى يقول : « أما مايذهب إليه بعض المحققين من ان النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان » .

وابن عطاء الله السكندرى يقول إن تفسير الصوفية ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان ، وهناك أفهام باطنة ، تُفهم من الآية لمن فتح الله قلبه ، ولا يطعن فى هذا أن يقال إن مثل هذا التفسير إحالة لكلام الله عز وجل عن وجهه ، لأنه يكون إحالة لوقالوا : لامعنى للآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها ، مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون من الله ما أفهمهم ، وربما فهموا من اللفظ ضد ماقصده واضعه !! .

وإذا كنا قد رأينا التفتازانى وابن عطاء يدافعان هذا الدفاع عن التفسير الصوفى ، فإننا نجد كثيرين يهاجمون التفسير الصوفى ، فهذا هو السيوطى يقول فى « الإتقان » : « وأما كلام الصوفية فى القرآن فليس بتفسير . قال ابن الصلاح فى فتاويه : وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدى المفسر أنه قال : صنف

ابو عبد الرحمن السلمى (حقائق التفسير) ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئا من ذلك أنه لم يذكره تفسيرا ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك منهم لنظير ما ورد به القرآن ، فإن النظير يذكر بالنظير ، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك ، لما فيه من الإبهام والإلباس »! .

وقال النسفى فى عقائده :« النصوص على ظاهرها ، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد » .

وفى الجزء الثاني من كتاب « البرهان فى علوم القرآن » يقول الزركشى عن تفسير الصوفية للقرآن : « فاما كلام الصوفية فى تفسير القرآن ، فقيل : ليس تفسيرا ، وإنما هى معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة ، كقول بعضهم فى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » : إن المراد النفس ، فامرنا بقتال من يلينا ، لأنها أقرب شيء إلينا ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه » .

ثم أورد الزركشى كلام ابن الصلاح الذى نقلناه عن السيوطى سابقا .

ويقول الرافعي في « إعجاز القرآن » : « أما المتصوفة ومن يتقلدون علم الباطن فلا حصر لمذاهبهم وأقوالهم في تفسير القرآن ، وبخاصة المتأخرين منهم ، فإن لهم في ذلك المزاعم العريضة ، مما يخرج أن يكون من علم الناس ، فإلى الله أمره ، وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في (الفتوحات) عند تفسير قوله تعالى : (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أن قوله أحصيناه يدل علي انه تعالى ما أودع فيه إلا علوما متناهية ، مع كونها خارجة عن الحصر لنا . قال : وقد سالت بعض العلماء بالله تعالى : هل يصح لأحد حصر أمهات هذه العلوم ؟ فقال : نعم هي مائة الف نوع ، وتسعة وعشرون ألف نوع ، وستمائة نوع ، كل نوع منها يحتوى على علوم لا يعلمها إلا الله تعالى » اهـ بنصه .

قلنا : قد ألف بعض علماء القوم كتابا سماه « تنبيه الأغبياء ، على قطرة من بحر علوم الأولياء » . كانت هذه القطرة فيه زهاء ثلاثة آلاف علم ، فترى ما عسى أن يكون البحر ؟ . اللهم إن السلامة في الساحل ، ولكن لبعض المحققين من مشايخ الصوفية دقائق في التفسير ، لا تتفق لغيرهم ، لسمو أرواحهم ، ونور بواطنهم . ومنهم كان الإمام السلطان الحنفي صاحب المقام المشهور في القاهرة ، سمعه يوما شيخ الإسلام البلقيني

يفسر آية فقال : لقد طالعت أربعين تفسيرا فما وجدت فيها شيئا من تلك الدقائق .

ويزعم الشيعة أن عليا رضى الله عنه أملى ستين نوعا من أنواع علوم القرآن ، وذكر لكل نوع منها مثالا يخصه ، وأن ذلك فى كتاب يروونه عنه من طرق عدة ، وهو فى أيديهم إلى اليوم ، وذلك وإن كان قريبا فيما يعطيه ظاهره ، غير أنه بالحيلة على تقريبه من الحقيقة صار أبعد منها وأمحض فى الزعم » .

* * *

وهناك من المفسرين من يجمع فى تفسيره للقرآن الكريم بين طريقة الظاهر وطريقة الباطن ، فإذا أورد آية ذكر تفسيرها الظاهرى ، ثم أتبعه بتفسيرها الباطنى ، وممن اتبع هذه الطريقة نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى فى كتابه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » وقد طبع على هامش تفسير الطبرى ، وقد ألف النيسابورى هذا التفسير فى أول القرن الثامن الهجري .

وكذلك الألوسى فى تفسيره « روح المعانى » ، نجده يفسر الآية تفسيرا ظاهريا ، ويذكر ما يتعلق بها ، ثم يقول : « ومن باب الإشارات » ويورد بعض التفسيرات الصوفية أو الإشارية للآية .

التفسير السياسي

يمكن أن يقال بسهولة إن إصبع السياسة تدخلت نوعا من التدخل في تفسير القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك أن طائفة تسمى « الحرورية » ثارت ضد علي رضى الله عنه، وقد حاول بعض المفسرين ان يقرر ان القرآن أشار إلي هذه الطائفة، فقد روى مصعب بن سعد أنه سال أباه عن قول الله تعالى: « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » هل هم الحرورية ؟.

فقال له ابوه: هذه ليست على الحرورية، بل ا ية أخرى هي: « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون فى الأرض، أولئك لهم اللعنة، ولهم سوء الدار »:

ويقابل هذا التفسير ما ادعاه الخوارج المبغضون لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه أن الآية: « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا، ويشهد الله علي مافي قلبه، وهو

ألد الخصام » قد نزلت فى على بن أبى طالب !.. وان الآية : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » نزلت فى حق ابن ملجم قاتل علي!!.. « رضى الله عن علي ، وارضاه ، وكرم الله وجهه » ! .

وبعض المفسرين يفسر قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » بانه نزل فى شان القتال بين حزب علي وحزب معاوية .

ونجد فى جانب الإمام على من يحاول إخضاع النص القرآنى للتفسير السياسى ، كالذى رووه عن سعيد بن جبير أنه روى عن ابن عباس أنه قال : لما نزلت : « إنما انت منذر ولكل قوم هاد » وضع رسول الله ﷺ يده على صدره ، وقال : « أنا المنذر » ، وأشار بيده إلى منكب على رضى الله عنه ، وقال : « وأنت الهادى يا على ، بك يهتدى المهتدون من بعدي » !!.

وقد فسر العلويون قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه » بأن المراد بالقربى هناهم أهل النبى ﷺ ، مع أن النص كما يبدو عام فى التحريض على صنع المعروف إلى ذوى القربى وأداء حقوقهم ، ولو قال هؤلاء قولهم هذا فى الآية الكريمة : « قل لا أسألكم عليه اجرا إلا المودة فى القربى » لكانوا

أقرب إلى الإنصاف وملاحظة السياق والمقام .

ولعل انشط الطوائف فى تفسير القرآن الكريم تفسيراً مذهبياً او سياسيا هم الشيعة ، وقد توسعوا فى ذلك ، وصارت لهم تفاسير خاصة ، وغالى البعض فى هذا المجال مغالاة سيئة ، ويقول جولد تسيهر وهو يتحمل تبعة قوله :

« أعظم سخط الشيعة على مذهب أهل السنة يتركز فى دائرة تفسير القرآن ، ولا نتوسع هنا فى الاستنباطات الفقهية التي يخرج الشيعة فيها من النص بنتائج مخالفة لما هو ثابت فى الإسلام السنى ، بل يتجه نظرنا اساساً إلى الملابسات التى يقحمها الشيعة فى ا يات القرآن ، والتى يزعمون أنها تصرح فى نغمة من السباب واللعن بالتنبؤ عن إبعاد العلويين واضطهادهم ، دون حق ، بوساطة الخلفاء الأول ثم بوساطة الأمويين ، كما يزعمون أن القرآن يشتمل بالدلالة الصريحة على تعظيم الأئمة ، والإشارة إلى ظهور الإمام الثانى عشر المحتجب ، إذا حان وقت ذلك ، وإنما ينبغى فقط أن يحصل التفسير الصحيح .

وهم يقولون إن ربع القرآن جعل أمر العلويين موضوعا له ، والربع الثاني يتعلق بأعدائهم ، والربع الثالث يشتمل على النظم التشريعية ، وأخيراً يحتوى الربع الرابع على القصص

والأمثال ، ويتعلق بعلى وحده سبعون آية من القرآن [1] ، وإذاً يكون القرآن – فى ذوقهم – إلى حد بعيد كتابا حزبياً شيعيا.

وسورة الكهف ووجوه التعليم التى قدمها الخضر إلى موسى [عليهما السلام] ، هى فى رأي الشيعة عرض لتاريخ الدين الصحيح ، ابتداءً من مبعث محمد [ﷺ] إلى قومه وما يلقى منهم ومن تكذيبهم ، وما يصيب آل محمد من البلاء ، كل ذلك قصه الخضر على موسى [عليهما السلام] حتى اشتد بكاؤهما .

وإن تفسير القرآن الذى يقدّم إلينا هنا فهو تفسير يوحى به حنق لا تحده حدود ، وحقد شديد التعصب ، فحيثما يذكر فى مكان ما من القرآن ما يدل على التحقير ، يستخرج حمل ذلك على الخلفاء الغاصبين ، من غير العلويين ، وأعوانهم » [2] .

وإليك مثلاً نموذجاً من التفسير المغالى الذى يعد أخف من غيره ، وهو يتعلق بالآيات التالية: « ألم تر كيف ضرب الله

---

(١) انظر كشف اليقين للحلى ، ص ٧٢ ، حيث توجد أيضاً نخبة من هذه التأويلات ، وقصدا إلى حمل السنة أيضاً على تصديق هذه التأويلات نسبت كثيراً إلى ابن عباس ومدرسته (كمجاهد وغيره) .

(٢) انظر كتاب « مذاهب التفسير الإسلامى » ص ٣١٢ .

مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » .

قيل إنه سئل الإمام أبو جعفر عن مثل هذا التمثيل ففسره كما يلى : « الشجرة رسول الله ، ونسبه ثابت فى بنى هاشم ، وفرع الشجرة على بن أبي طالب ، وغصن الشجرة فاطمة عليها السلام ، وثمرتها الأئمة من ولد على وفاطمة عليهم السلام ، وشيعتهم سلام الله عليهم ورقها ، وإن المؤمن من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة ، وإن المؤمن ليولد فتورق الشجرة ورقة » .

ثم قيل إنه سئل الإمام عن معنى الكلمات : « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » . فقال : « يعنى بذلك ما يفتي به الأئمة شيعتهم فى كل حج وعمرة من الحلال والحرام ، ثم ضرب الله لأعداء محمد مثلا فقال : (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) . وفى رواية أبي الجارود قال : « أولئك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء ، وبنو أمية لا يذكرون الله فى مجلس ولا فى مسجد ، ولا تصعد أعمالهم

إلى السماء إلا القليل منهم (١) » . هكذا يروون ويقولون !

ويقول جولد تسيهر إن بعض الشيعة يفسرون مضمون سورة الرحمن البليغة الجيدة التأثير « تفسيرا سطحيا تافها فى روح مذهبية ، ويسلبونها بتاويلات فارغة أثرها الفنى الجميل » ! . وحسبنا أن نجدهم يفسرون الآية : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان » هكذا : « من تولى امير المؤمنين (على) وتبرأ من أعدائه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، ثم دخل فى الذنوب ، ولم يتب فى الدنيا عُذّب عليها فى البرزخ ، ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسال عنه يوم القيامة » !! .

واقدم تفسير شيعى للقرآن كان فى القرن الثاني الهجرى ، وهو تفسير جابر الجعفى المتوفى سنة ثمان وعشرين ومائة ، وهو غير موجود بين أيدينا ، ثم يجىء تفسير : « بيان السعادة فى مقام العبادة » للسلطان محمد بن حجر البجختى ، وقد انتهى منه سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، وتفسير أبي الحسن على بن إبراهيم القمي فى القرن الرابع ، ثم تفسير أبى جعفر الطوسى ، وهو مطول فى عشرين جزءاً .

وقد صارت كتب التفسير الشيعية حقلا خصبا لمزاولة علوم

(١) المقصود بذلك طبعاً رجال مثل عمر بن عبدالعزيز .

الدين على مذهب الشيعة ، ولذلك يقول جولد تسيهر : « وفيما عدا كتب التفسير المنهجى المنظم ، يفيض كل كتاب من كتب الدين الشيعية فوق ذلك باستخدام طريقة هذه الفرقة فى التفسير ، وتطبيق القرآن بالقسر والإكراه على مذهبهم العقدي ، وعلى أساطيرهم التي نموها فى نطاق تصوراتهم عن الأئمة ومناقبهم الخارقة للعادة .

وهناك ميسم يسم بكل طابعه كل هذه الكتب ، كما يسم أدب الشيعة الدينى برمته ، ويضع اساس منهجها النقلى المأثور فعلى حين يستند أهل السنة إلى واحد من الصحابة ، على أنه المصدر الأخير فى معارفهم الدينية ، وذلك فيما يتعلق ايضاً بفهم القرآن ، يعد الشيعة الطريق الوحيد إلى الوثوق الشرعى. المحتج به هو أن يمكن إرجاع المسألة المراد تعليمها ، عن طريق سلسلة من المراجع الموثوق بها (من اشياع علي حسب رأيهم) ، إلى واحد من أهل البيت ، وإلى احد الأئمة أنفسهم إذا أمكن ذلك ، هؤلاء هم أوثق الثقات ، لأنهم المترجمون الصادقون عن الحقيقة وعما يريد الله ورسوله .

وهكذا نجد فى الغالب أحد الأئمة على رأس كل وجه من وجوه التفسير القرآنى ، بيد أن أعيننا اليوم قد اكتسبت

حدة كافية من خبرة النقد ، سواء أكان ذلك فى فن الرواية السنية أم الشيعية ، بحيث لا نلقى وزناً كبيراً لمثل ذلك النوع من الاعتماد والاحتجاج ، الذي كثيراً ما يبدو فى مظهر جد براق خلاب[1] » !

* * *

ومن الغريب ان بعض المعادين لبنى أمية قد ذهبوا إلى أن المراد بالشجرة الملعونة فى القرآن هى بنو أمية ، ولذلك سمى الخوارج اسرة الأمويين « بيت اللعنة » ،وجاء ابن عطية فقال : إن الشجرة الملعونة فى القرآن لا يجوز حملها على عثمان ولا معاوية ولا عمر بن عبد العزيز ، والمفهوم من هذا أنه يجوز حملها على بقية الأمويين !! .

ويذكرنا هذا الاحتراز المضحك من ابن عطية بالشيخين اللذين اشتهرا بالشدة فى الامتحان ، وروى عنهما على سبيل الدعابة أنهما لما انتهيا من امتحان طالب ذكى قال أحدهما : « إنه يستحق صفرا » فرد عليه زميله قائلا : « يا أظلم البرايا ، كن عادلا ، إنه يستحق درجة واحدة » ! . . ونهاية الدرجات هنا هى أربعون درجة !!.

(١) كتاب مذاهب التفسير الإسلامى . ص ٣٠٤ ..

ومن العجيب أن يقال مثل هذا التفسير عن « الشجرة الملعونة » مع أنها هى « شجرة الزقوم » الموصوفة وصفاً كاشفا كافيا فى سورة الصافات ، حيث يقول القرآن الكريم : « أذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى اصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوبا[1] من حميم » .

ومن أمثلة التفسير السياسي الشيعي المستغل ضد الأمويين ما قيل وروي من ان رجلا قام إلى الحسن بن على ، بعد ما بايع معاوية ، فقال له : سودت وجوه المؤمنين ، أو يا مسوّد وجوه المؤمنين . فقال له الحسن : « لا تؤنبنى رحمك الله ، فإن النبي ﷺ أرى بنى امية على منبره ، فساءه ذلك ، فنزلت : (إنا أعطيناك الكوثر) يا محمد ، يعنى نهرا في الجنة ، ونزلت (إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) يملكها بعدك بنو أمية يا محمد » .

(١) شوبا : خلطا ومزاجا .

قال القاسم : « فعددنا ، فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ، ولا تنقص » ! .

هكذا رووا وقالوا ، ولكن الترمذى يأبى ويقول : « هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ». ثم يقول علماء الحديث عن بعض رواة هذا الحديث — وهو يوسف بن مازن : « إنه رجل مجهول » .

ويأتى ابن كثير في تفسيره فيقول : « ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جدا ، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزى : هو حديث منكر . قلت : وقول القاسم ابن الفضل الحدانى إنه حسب مدة بنى امية ، فوجدها الف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص ، ليس بصحيح ، فإن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن على الإمرة سنة اربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية ، وسمى ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير فى الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريبا من تسع سنين ، لكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية ، بل عن بعض البلاد ، إلى ان استلبهم بنو العباس الخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين

وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر ، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكان القاسم ابن الفضل أسقط من مدتهم ايام ابن الزبير ، وعلى هذا فيقارب ما قاله الصحة فى الحساب ، والله أعلم .

ومما يدل علي ضعف هذا الحديث أنه سيق لذم دولة بنى أمية ، ولو اريد ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على ايامهم ، لا يدل على ذم أيامهم ، فإن ليلة القدر شريفة جداً ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تمدح بتفضيلها على ايام بنى أمية التى هى مذمومة بمقتضى هذا الحديث ، وهل هذا إلا كما قال القائل :

ألم تر ان السيف ينقص قدره
إذا قيل : إن السيف أمضى من العصا

وقال آخر :

إذا أنت فضلت آمرا ذا براعة
على ناقص ، كان المديح من النقص

ثم الذى يفهم من الآية أن الألف شهر المذكورة فى الآية هى أيام بنى أمية ، والسورة مكية . فكيف يحال على ألف شهر هى دولة بنى أمية ، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها ، والمنبر

إنما صنع فى المدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارته . والله أعلم »[1]

وخلال تتبعنا لقصة التفسير نستطيع أن نلحظ كيف حاول أهل المذاهب الدينية المتعددة تفسير القرآن حسب مذهبهم وخطتهم ، فالفقهاء والمتكلمون والصوفية والطوائف ، كل من هؤلاء حاول أن يجد له فى مائدة القرآن ما يغنيه ويكفيه ، أو يؤيده ويحميه ، وإذا كان بعضهم قد أساء استعمال ذلك أحيانا فإن آخرين قد استطاعوا بمحاولاتهم الواسعة الموصولة أن يستخرجوا جواهر كثيرة من كنز القرآن الذى لا تبلى عجائبه ولا تنتهى غرائبه .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشى الدمشقى ، ج ٤ ص ٥٣٠ .

حركة التجديد في التفسير

في القرن التاسع عشر كان العالم الإسلامى مصاباً بتاخر وجمود وانحطاط واحتلال أجنبي ، فجاء جمال الدين الأفغانى ، وصرخ صرخته المدوية لإيقاظ المسلمين ، وكان أول تلاميذه هو الشيخ محمد عبده ، الذى أخذ يلقى دروسا فى تفسير القرا ن الكريم على طريقة توحى بتجديد مباديء الإسلام ، وربط التعاليم الدينية بالحياة المدنية ، وإظهار أن الإسلام لايتعارض ابداً مع الحضارة والمدنية والتقدم فى الحياة .

وتولي السيد رشيد رضا تسجيل هذه الدروس فى مجلة « المنار » أولا ، ثم جمعها وزاد عليها فى « تفسير المنار » الذى يعتبر تفسيراً عصريا جديدا ، يحاول ربط القرا ن الكريم بالمجتمع والحياة ، ويقرر أن الإسلام دين عالمى عام خالد ، صالح لكل زمان ومكان .

ويعتمد هذا التفسير على تفسير القرا ن بالقرا ن وبالسنة الصحيحة ، وبالرجوع إلى لغة العرب ، وبالاجتهاد ، وبالنظر

إلى النص القرآنى على أنه وحدة متكاملة ، ولا يمزق الآيات ولا يفصل بعضها عن بعض ليفسر كلا منها على حدة ، بل يتناول المجموعة من الآيات ليعرضها دفعة واحدة ، بغرضها الأساسى وهــدفها العام ، وهو لايعنى كثيراً بالبحوث النحوية والبلاغية واللغوية ، بل يشغله المعنى فى كثير من الأحيان ، وهو ايضا لايعنى كثيراً بالدخول فى تفاصيل الفروع والجزئيات ، بل يهدف إلى الكليات والمعانى العامة ، وهو يتلمس الأسباب لوصل القرآن بعلوم الاجتماع والطبيعة وسياسة الأمم ، ويستشهد بآراء الفلاسفة المعاصرين ورجال الاجتماع والسياسة وغيرهم ، ويحاول فى كل مناسبة أن يوفق بين القرآن والعلم ، ولذلك كتب السيد رشيد رضا على غلاف « تفسير المنار » هذه العبارة:

« هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول ، الذي يبين حكم التشريع وسنن الله فى الاجتماع البشرى ، وكون القرآن هداية عامة للبشر فى كل زمان ومكان وحجة الله وآياته المعجزة للإنس والجان ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هذا العصر ، وقد أعرض أكثرهم عنها وما كان عليه سلفهم ، إذ كانوا معتصمين بحبلها ، بما يثبت أنها هى السبيل لسعادة الدارين ، مراعى فيه السهولة فى التعبير ،

مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون ، بحيث يفهمه العامة ، ولا يستغنى عنه الخاصة ، وهذه هى الطريقة التى جري عليها فى دروسه فى الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، أحسن الله مآبه ، وأجزل ثوابه » !

ويري الشيخ محمد عبده أن عناية المفسرين بالنحو أو البلاغة أو الفلسفة يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى ، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى ، والتفسير الذي يطلبه الشيخ هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلي مافيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخرة ، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه ، وما وراء هذه المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله ويمضى السيد رشيد رضا فى توضيح الطريقة الأساسية لتفسير « المنار » فيؤكد أن القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع ، وليس كتاباً لتفصيل العلوم والفنون ، ويقول : « أيها المسلمون ، إن الله تعالى أنزل عليكم كتابه هدي ونورا ليعلمكم الكتاب والحكمة ، ويزكيكم ، ويمدكم لما يعدكم به من سعادة الدنيا والآخرة ، ولم ينزله قانونا دنيويا جافا كقوانين الأحكام ، ولا كتاباً طبياً لمداواة الأجسام ، ولا تاريخاً بشرياً لبيان الأحداث والوقائع ، ولا سفرا فنيا لوجوه الكسب

والمنافع ، فإن ذلك مما جعله الله تعالى باستطاعتكم ، لا يتوقف على وحي من ربكم » .

وإذا كان المألوف فى التفسير هو أن يتناول المفسر آيات القرآن آية آية كما جاءت فى ترتيب المصحف ويفسرها على التوالى ، فإنا نجد «تفسير المنار» لا يتقيد بهذه الطريقة ، بل هو يذكر طائفة من الآيات ذات غرض عام ، ثم يفسرها ، فإذا انتهى من ذلك انتقل إلى تفسير طائفة أخرى بعدها ، وهكذا دواليك .

وقد توسع فى هذا الأستاذ سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن» ،فهو يذكر « الربع » من القرآن كاملا ،ثم يفسره ، فإذا انتهى منه أورد « الربع » الذى يليه وفسره ، وهكذا .

ونحن نجد بين القدماء من خرج على طريقة تفسير القرآن آية فآية ، واتبع طريقة أخرى ، كما فعل ابن القيم حينما شغل نفسه بتفسير موضوع بعينه من القرآن ، وهو موضوع « القسم » ، فجمع آياته وتكلم عنها فى كتابه « التبيان » .

ويعتبر الشيخ شلتوت هذه الطريقة هى الطريقة المثلى لتفسير القرآن الكريم ، وفى ذلك يقول :

« لتفسير القرآن الكريم طريقتان : إحداهما أن يسير

المفسر بتفسيره مع آيات الذكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآني المعروف ، فيفسر المفردات ، ويربط بين الآيات ، ويبين المعاني التي تدل عليها ، وهذه هي الطريقة التي عهدها الناس منذ كان التفسير وكان المفسرون ، ومن مظاهرها اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسرين ، فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عني في تفسيره بالتطبيق على قواعدها ، ومن غلبت عليه روح النحو والصرف ، عني في تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها ، ومن غلبت عليه الروح التاريخية عني بالقصص والأخبار ، وربما اسرف فادخل في التفسير كثيرا من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص ، ومن غلبت عليه الروح الفلسفية حبب إليه البحث في الكائنات ، وعني في تفسيره بهذا الجانب ، ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامي أو الفقهي تأثر تفسيره بما غلب عليه وهكذا .

وبهذه الأساليب المختلفة المتأثرة بهذه الاتجاهات المتعددة ، صعب على الناظر في هذه التفاسير ان يجد هداية القرآن على الوجه الذي يطمئن إليه قلبه ، ويشق له طريق الحياة ، ويلهمه الرشد والسداد . ولقد نجم عن هذه الطريقة ان عدل ببعض الآيات عن معانيها واغراضها التي سيقت لها ، أو حكم فيها

معنى لا تحتمله قضي عليها بالنسخ ، وكثيرا ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصولية التى استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية ، واتخذوها أصولا تحاكموا إليها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام ، ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام ، بل تعدي إلي العقائد وآراء الفرق ، فتراهم يقولون : هذه الآية لا تتفق ومذهب أهل السنة ، فهي مؤولة بكذا وكذا ، كما يقولون : هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية ، وتاويلها كذا وكذا ، وكما يقولون : هذه الآية او تلك الآيات - وربما نيفت على السبعين - لا تتفق ومشروعية القتال فهى منسوخة ! .

وهكذا صار القرآن فرعا بعد ان كان أصلا ، وتابعا بعد أن كان متبوعا ، وموزونا بغيره بعد أن كان ميزانا . يقول الله تعالى : « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . والرد إلى الله هو الرد إلي كتابه ، والرد إلي الرسول هو الرد إلى سنته الصحيحة ، ولكن هؤلاء عكسوا القضية ، وقلبوا التشريع ، وردوا كتاب الله وسنة رسوله إلى مالهم من آراء ، وما لمقلديهم من مذاهب .

وقد نقل الفخر الرازي وهو بصدد تفسير قوله تعالى

فى سورة التوبة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » عن شيخه خاتم المحققين والمجتهدين : « وقد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله فى بعض مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، لم يقبلوا تلك الآيات ، ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها » ؟ .

وكما نقل الرازى عن شيخه هذا ، نقل غيره عن كثير من العلماء كالغزالى والعز بن عبد السلام ، مثله وأكثر منه .

كانت هذه الأساليب الملتوية فى تفسير القرآن ، وهذه النكسة التى أصيبت بها علاقة القرآن بالفقه والعقائد ، سببا فى حدوث فوضى فكرية فيما يتصل بالقرآن ومعانى القرآن ، وكان لهذه الفوضى أثرها فى إعراض الناس عن القرآن ، وعن الاستماع لمفسري القرآن .

أما الطريقة الثانية فهى أن يعمد المفسر أولا إلى جميع الآيات التى وردت فى موضوع واحد ، ثم يضمها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها ، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض ، فيتجلي له الحكم ويتبين المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة فى الموضوع ،

وبذلك يضع كل شيء موضعه، ولا يكره آية على معنى لا تريده، كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهي الحكيم، وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى، وخصوصا في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس، بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة، يشتغل بها الناس من غير ان يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية، ويتصل بحياتهم من شئون.

وهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة. كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه، ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية: القرآن وأصول التشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسرة، القرآن وأدب الاجتماع، القرآن والسياحة، القرآن والاقتصاد، القرآن والتضحية، القرآن والبر، وهكذا ... إلى آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عمدا قوية في بناء الأمة ونهضتها، وبهذا يطمئن الناس بطريقة عملية واضحة إلي أن القرآن ليس بعيدا عن حياتهم، ولا عن نواحي تفكيرهم، ولا عن مشكلاتهم التي تعرض لهم في كل حين، يطمئنون إلى أن القرآن

ليس كتابا روحيا فقط، مهمته أن يشرح طرق القرب إلى الله من غير أى يعنى بشىء من وسائل الحياة.

ولقد سرت هذه الفكرة الخبيثة الباطلة فى نفوس كثيرمن الناس من حيث لايشعرون، وليس عند سواد الناس وعامتهم فقط، ولكن عندكثير ممن يزعمون لأنفسهم أو يزعم الناس لهم تفقها فى الدين، أو ثقافة و نبوغا فى الحياة، ولقد أصبح القرا ن بهذا فى نظر هؤلاء وهؤلاء كالأوراد يعكف عليها طوائف المريدين فى أوقات الخلوة، واكتفوا منه بتلاوته، والاستماع إليه، والتعوذ به، والاستشفاء من الأمراض. إنهم بهذا ظلموا القرآن، وظلموا أنفسهم وعقولهم، وظلموا الحياة الطيبة، وحرموها ينبوعا لاينتهى فيضه فى العلم والحكمة والتشريع والسياسة والتربية والتهذيب، وكل ماتعالج به شئون الحياة: « إن هذا القرآن يهدي للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا ».

وقد سبق لى منذ سنوات أن كتبت فصولا على طريقة تناول الموضوع الواحد من موضوعات القرآن الكريم بالتفسير، ففى سنة ١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م كتبت مثلا فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة الأزهر بحثاً عن « الحزبية في القرآن »، وبحثاً

فى « حديث القرآن عن اللغو » ، وفى المجلد الخامس والعشرين من المجلة نفسها كتبت بحثا عن « العزة فى القرآن الكريم » ، وفى المجلد السادس والعشرين كتبت البحوث التالية : « الرجولية فى القرآن » ، « القلة والكثرة فى القرآن » ، « حديث القرآن عن النطير » ، « النضرة فى القران » .

وفى المجلد السابع والعشرين نشرت هذه البحوث : « حديث الفتوة فى القران » ، « حديث الزلزال في القرآن » « حديث الغرور فى القران » . وفى عدد ١٦ ذى القعدة سنة ١٣٧٦ من مجلة « الحج » المكية نشرت بحثا بعنوان : « المحبة فى القرآن» . وفى عدد صفر سنة١٣٧٥ هـمن مجلة «منبر الإسلام» كتبت بحثا بعنوان « حديث الترف فى القرآن » ، وفى عدد جمادى الأولى سنة ١٣٧٥ من نفس المجلة كتبت بحثاً بعنوان « حديث الإسراف فى القرآن » ... إلخ .

وهناك طريقة أخرى فى التفسير ، هى إجمال ما فى السورة من موضوعات وأهداف ومقاصد ، وممن برز فى هذه الطريقة الشيخ محمود شلتوت فى محاضراته وكتاباته .

وهذا بجوار ألوان شتى من طرق التعرض للتفسير، كالتعرض لقصص القرآن أو تشريع القرآن ، أو التاريخ فى القرآن ،

أو اعلام القرآن ، أو المرأة فى القرآن ، أو الإنسان فى القرآن أو فلسفة القرآن ... إلخ ..

* * *

وهناك طريقة الدراسة الأدبية للقرآن ، ويري الأستاذ أمين الخولى أن الغرض الأول من أغراض التفسير — قبل بيان الأحكام والتشريع والعقائد والأخلاق — « هو النظر فى القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم ، فهو الكتاب الذى أخلد العربية ، وحمى كيانها وخلد معها ، فصار فخرها وزينة تراثها ، وتلك صفة القرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى ، ما دام شاعرا بعربيته ، مدركا ان العروبة اصله فى الناس ، وجنسه بين الأجناس ، وسواء بعد ذلك اكان العربى مسيحياً ام وثنيا ، أم كان طبيعيا دهريا لا دينيا ، أم كان المسلم المتحنف ، فإنه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب فى العربية ، ومكانته فى اللغة ، دون أن يقوم ذلك على شيء من الإيمان بصفة دينية للكتاب ، أو تصديق خاص بعقيدة فيه » .

ويذكر الأستاذ أن الشعوب الإسلامية غير العربية التى اتخذت العربية لغة قد صار لكتاب العربية الأعظم وقرآنها الأكرم

مكانة بين ما تعنى به ، فألزمها كل أولئك تناول الكتاب بدراسة أدبية ، تتفهم بها أصول ما ورثت من تلك العروبة إن كانت قد اتصلت بتلك العروبة اتصالا حيويا قويا ..

ويرى أن دراسة القرآن دراسة أدبية يجب ان يقوم بها الدارسون وفاء لحق هذا الكتاب ، ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو يعتقدوا ما فيه ، « فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس ، سواء أنظر إليه الناظر على أنه كذلك فى الدين ام لا » . ويجب أن تسبق هذه الدراسة كل غرض من تفسير القرآن ، وبعدها يسمى كل ذى غرض إلى غرضه ، لأن هذه الأغراض لا تتحقق علي وجهها إلا بعد هذه الدراسة ، وهذه الدراسة هى الجديرة بأن تسمى باسم « التفسير » ، على أن تكون صحيحة المنهج كاملة المناحي متسقة التوزيع .

وبعد ان يشير إلى أن ترتيب القرآن فى المصحف قد ترك وحدة الموضوع ولم يلتزمها ، يري ان ذلك التوزيع والتفريق لحكمة ، ويري أن « ذلك كله يقضى فى وضوح بان يفسر القرآن موضوعا موضوعا ، وأن تجمع الآيات الخاصة بالموضوع الواحد، جمعا إحصائياً مستقصيا،ويعرف ترتيبها الزمنى ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم ،

فيكون ذلك التفسير أهدي إلى المعنى ، وأوثق فى تحديده ، وليس تفسير القرآن سورة سورة إلا تعرضا مفرقا لموضوعات مختلفة تنتظمها السورة الواحدة ، ثم يعود المفسر بعد ذلك فى السورة الأخري إلى مثل هذه الموضوعات أنفسها » . وبعد ان يبين عيب طريقة التفسير بتتابع السور كما جاءت فى المصحف يقول : « فصواب الراي فيما يبدو أن يفسر القرآن موضوعا موضوعا ، لا أن يفسر على ترتيبه فى المصحف الكريم سورا وقطعا ، ثم إن كانت للمفسر نظرة فى وحدة السورة وتناسب آيها واطراد سياقها ، فلعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة فيها » .

وهو يرى ان منهج التفسير الأدبى للقرآن صنفان : دراسة حول القرآن ، ودراسة فى القرآن ، فدراسة ماحول القرآن دراسة خاصة مثل ما يتعلق بنزوله وجمعه وقراءته ، وما يسمي بعلوم القرآن بصفة عامة .

ودراسة عامة وهى ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التى فيها نزل القرآن وجُمع وكتب وقرىء، لأن روح القرآن عربية ، ومزاجه عربي ، وأسلوبه عربى ، والنفاذ إلى مقاصده يكون بفهم الروح العربية والمزاج العربى والذوق العربى ، وإن كان للقرآن معان ومرامٍ إنسانية واجتماعية بعيدة الهدف أبدية

العمر ، ولكن ذلك كله إنما جاء الإنسانية فى ثوبه العربى وبذلك التعبير العربي ، والتمثل التام لهذه العروبة هو السبيل المتعينة لفهم ذلك كله والوصول إليه .

وأما الدراسة الثانية فدراسة فى القرآن ، وذلك بالنظر فى المفردات وتدرج دلالة الألفاظ ، وتأثرها فى هذا التدرج ما بين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ، ويتمنى لو ملكنا قاموساً اشتقاقياً تتدرج فيه دلالات الألفاظ ، وتتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها من المعانى الاصطلاحية على ظهورها . ثم ينتقل المفسر من النظر اللغوى فى الكلمات إلي معناها الاستعمالى فى القرآن فيتعرفه ويتتبعه ، ثم ينظر فى المركبات مستعيناً بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة .. إلخ ، على أن تكون هذه العلوم وسائل لا مقاصد ، ويهدف إلي تعرف الجمال القولى فى الأسلوب القرآني .

وعلم البلاغة وثيق الصلة بعلم النفس ، وفى القرآن إعجاز نفسى يحتاج إلي تفسير نفسى تتبين فيه أسرار حركات النفس البشرية فى الميادين التي تناولتها دعوة القرآن وجدله الاعتقادى .

كما يدعو الأستاذ الخولى إلى تفسير القرآن تفسيراً اجتماعيا وهى دعوة الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفاتحة .

من المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ كتب السنة

٣ ـ جامع البيان : تفسير ابن جرير الطبرى

٤ ـ الكشاف : تفسير الزمخشرى

٥ ـ تفسير المنار : للسيد محمد رشيد رضا

٦ ـ تفسير ابن كثير

٧ ـ تفسير القاسمى

٨ ـ تفسير الطبرسى

٩ ـ تفسير الرازى

١٠ ـ تفسير الآلوسى

١١ ـ الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى

١٢ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى . .

١٣ ـ مقدمة التفسير للراغب الأصفهانى

١٤ ـ مذاهب التفسير الإسلامى : لجولد تسيهر ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

١٥ ـــ كشف الظنون ، لحاجى خليفة
١٦ ـــ دائرة المعارف الإسلامية : مادة « تفسير » كتبها كاراده فو وعلق عليها الأستاذ أمين الخولى
١٧ ـــ إعجاز القرآن ، للأستاذ مصطفى صادق الرافعى
١٨ ـــ طبقات الصوفية ، لأبى عبد الرحمن السلمى
١٩ ـــ اللمع ، لأبى نصر السرّاج الطوسى
٢٠ ـــ الموافقات ، للشاطبي
٢١ ـــ تفسير الفاتحة ، للشيخ محمد عبده
٢٢ ـــ مقدمة ابن خلدون

فهرس

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها الآتية

١٥ — التخطيط القومى ... ... للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... للدكتور ثروت عكاشة
١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى
١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى
١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد احمد بدوى
٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصرة للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — أعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمد خالد
٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة ... للدكتور محمود يوسف الشوارى

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة

فاحرص على ما فاتك منها . . .

واطلبها من :

١ ـ دار القلم ... ... ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
٢ ـ مكاتب شركة توزيع الأخبار ... ... في الإقليم المصري
٣ ـ مكتبة المثنى ... ... بغداد ـ العراق
٤ ـ الشركة القومية للنشر والتوزيع ... ... تونس
٥ ـ مكتبة الندوة ... ... ام درمان ـ السودان

دار القلم بالقاهرة